بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ:

إِنَّ تَوْحِيدَ اللهِ هُوَ حَقُّهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَالدِّينُ الَّذِي ابْتَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلُ: ٣٦].

وَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْفِقْهُ الْأَكْبَرُ الَّذِي يُحَرِّرُ الْقُلُوبَ مِنْ رِقِّ الْعَبِيدِ، وَيَجْعَلُهَا حُرَّةً للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ الْحَسَنَةُ الَّتِي تَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الْخُلُودِ فِي نَارِ السَّعِيرِ، وَإِذَا عَظُمَتْ وَتَحَقَّقَتْ؛ فَإِنَّهَا تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَعَ السَّابِقِينَ الْآمِنِينَ؛ فَعَنْ عِتْبَانَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (...فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ)[1].

وَلِأَهَمِّيَّةِ التَّوْحِيدِ فِي اسْتِقَامَةِ الْأُمَّةِ، وَأَمْنِهَا وَهُدَاهَا؛ وَجَدْتُنِي مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ أَنْ أُقَدِّمَ جُهْدًا أَنْتَفِعُ بِهِ، وَأَدْعُو بِهِ مَنْ أُطِيقُ مِنَ النَّاسِ؛ رَجَاءَ سَلَامَةِ الْمُعْتَقَدِ، وَبَرَاءَتِهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَالْفَوْزِ بِالْأَمْنِ وَالْهِدَايَةِ الَّذَيْنِ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٨٢].

وَرَأَيْتُ أَنْ يَكُونَ مَحَلَّ الدِّرَاسَةِ كِتَابُ التَّوْحِيدِ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فَشَرَعْتُ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمُسْتَرْشِدًا بِشُرُوحِ ذَوِي الْحِجَى مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ وَفَّقَهُمُ اللهُ تَعَالَى فَدَانُوا لَهُ بِعَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَوَضَعُوا لِلْكِتَابِ شُرُوحًا قَيِّمَةً، وَقَدْ تَمَّ لِي ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ.

وَأَسْأَلُهُ تَعَالَى الْإِخْلَاصَ وَالْقَبُولَ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَمَوْلَاهُ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



لَيْلَةَ ٦ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ

الْمُوَافِقُ لِلتَّاسِعِ مِنْ يَنَايِرَ ٢٠٢٢م.

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٢٥)(١/٩٢)، مسلم/صحيحه(٢٦٣)(١/٤٥٥).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ابْتَدَأَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كِتَابَهُ بِالْبَسْمَلَةِ؛ اتِّبَاعاً لِلْكِتَابِ الْعَزِيزِ، حَيْثُ بُدِئَ بِالْبَسْمَلَةِ، وَبُدِئَتْ بِهَا كُلُّ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِه، واتِّبَاعاً لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي مُكَاتَبَاتِهِ ومُرَاسَلاتِهِ، حَيْثُ كَانَ يَبْدَؤُهَا فِي أَوَّلِ الأَمْرِ بِقَوْلِهِ: (بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النَّمْلُ: ٣٠]، كَتَبَ (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)[١].

وَدَعَا إِلَى تَثْبِيتِهَا وَسِيلَةً يُسْتَفْتَحُ بِهَا الْعَمَلُ عِبَادَةً أَوْ عَادَةً؛ لِيُدْرِكَ النَّاسُ بَرَكَتَهَا؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ، أَقْطَعُ)[٢]، وَفِي رِوَايَةٍ: (أَجْذَمُ)[٣]، وفي رواية: (أَبْتَرُ)[٤] أَيْ: نَاقِصُ الْبَرَكَةِ.

وَالْبَاءُ فِي (بِسْمِ اللهِ) لِلاسْتِعَانَةِ وَطَلَبِ الْمَثُوبَةِ؛ لِذِكْرِهَا فِي سِيَاقِ التَّوَسُّلِ بِاسْمِ (اللهِ) الأَعْظَمِ؛ رَجَاءَ الْبَرَكَةِ وَالْمَعُونَةِ، وَدَحْرِ الشَّيْطَانِ.

فَيَكُونُ الْمَعْنَى: بِسْمِ اللهِ أَكْتُبُ أَحْكَامَ التَّوْحِيدِ، أَوْ أَكْتُبُ مُسْتَعِيناً بِاسْمِ اللهِ، وَالأَوَّلُ أَوْلَى مِنَ الثَّانِي؛ لِفَائِدَتَيْنِ:

الأُولَى: إِدْرَاكاً لِبَرَكَةِ الْبَدَاءَةِ بِاسْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ تَقْدِيمَ الْمَعْمُولِ عَلَى الْعَامِلِ يُفِيدُ الْحَصْرَ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي تَقْرِيرِ الاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْفِعْلِ مُتَأَخِّراً (بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ) بِمَنْزِلَةِ لَا أَقْرَأُ إِلَّا بِاسْمِ اللهِ.

وَالتَّوَسُّلُ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ (اللهُ) فِي إِدْرَاكِ الإِعَانَةِ وَالتَّوْفِيقِ مِنْ أَجْمَعِ وَسَائِلِ الْفَتْحِ؛ لِأَنَّ (اللهَ) هُوَ الاِسْمُ الأَعْظَمُ الَّذِي لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ.

---

(١) مرسل، أخرجه: ابن أبي شيبة/مصنفه(٣٥٨٩٠)(٧/٢٦١).

(٢) ضعيف، أخرجه: ابن ماجه/سننه(١٨٩٤)(١/٦١٠).

(٣) ضعيف، أخرجه: الطبراني/المعجم الكبير(١٤١)(١٩/٧٢).

(٤) ضعيف، أخرجه: أحمد/مسنده(٨٧١٢)(١٤/٣٢٩).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَاسْمُ (اللهِ) دَالٌّ عَلَى جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى"[١].

وَقَوْلُهُ: **(اللهِ)** هُوَ الْجَامِعُ لِلْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الْعُلَى، الْمَأْلُوهُ الْمَعْبُودُ، ذُو الْأُلُوهِيَّةِ، وَالْعُبُودِيَّةِ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ، لِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَاسْتَحَقَّ مَعَانِي الْأُلُوهِيَّةِ كُلَّهَا، الَّتِي تُوْجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَعْبُودَ وَحْدَهُ، الْمُعَظَّمَ الْمُقَدَّسَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

فَمَنْ تَدَبَّرَ اسْمَ اللهِ عَرَفَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي الْأُلُوهِيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ كَمَالَ الصِّفَاتِ، وَعَدَمَ الشَّرِيكِ فِي الْأَفْعَالِ؛ لِأَنَّ الْمَأْلُوهَ إِنَّمَا يُؤْلَهُ لِمَا قَامَ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَيُحَبُّ وَيُخْضَعُ لَهُ لِأَجْلِهَا، وَالْبَارِي ﷻ لَا يَفُوتُهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ شَيْءٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يُؤْلَهَ بِغَايَةِ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ، وَبِالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِ، وَقَطْعِ الِالْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ كَمَالٌ وَلَا لَهُ فِعَالٌ[٢].

قَوْلُهُ: **(الرَّحْمَنِ)** الَّذِي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ، عَلَى وَزْنِ فَعْلَانَ الَّذِي يُؤْذِنُ بِالسَّعَةِ وَالِامْتِلَاءِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: غَضْبَانُ، لِلْمُمْتَلِئِ غَضَبًا، وَنَدْمَانُ، وَحَيْرَانُ، وَلَهْفَانُ، لِمَنْ مُلِئَ بِصِفَاتِهَا.

فَاسْمُهُ **(الرَّحْمَنُ)** يَدُلُّ عَلَى السَّعَةِ وَالشُّمُولِ؛ وَلِهَذَا قُرِنَ اسْتِوَاءُ الْعَرْشِ فِي الْقُرْآنِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ كَثِيرًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الْفُرْقَانُ: ٥٩]، فَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ قَدْ وَسِعَهَا، وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الْأَعْرَافُ: ١٥٦]، فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ[٣].

قَوْلُهُ: **(الرَّحِيمِ)** اسْمٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، وَهُوَ الرَّاحِمُ لِعِبَادِهِ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الْأَحْزَابُ: ٤٣]، وَيَقُولُ: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التَّوْبَةُ: ١١٧]، أَيْ: رَاحِمٌ، وَلَمْ يَجِئْ: رَحْمَنُ بِعِبَادِهِ، وَلَا رَحْمَنُ بِالْمُؤْمِنِينَ[٤].

فَيَجْتَمِعُ فِي **(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)** سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ، وَأَنَّهُ مَانِحُهَا لِعِبَادِهِ.

---

(١) ابن القيم/مدارج السالكين(١/٥٥).

(٢) السعدي/تفسير أسماء الله الحسنى(ص: ١٦٤-١٦٦).

(٣) ابن القيم/مدارج السالكين(١/٥٧).

(٤) ابن القيم/مدارج السالكين(١/٥٦).

وَالْمَعْنَى: بِسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي تَأْلَهُهُ الْقُلُوبُ مَحَبَّةً وَتَعْظِيماً وَبِرَحْمَتِهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَبِاسْمِهِ الرَّحِيمِ الرَّاحِمِ لِعِبَادِهِ أَخُطُّ كِتَابِي هَذَا رَجَاءَ التَّوْفِيقِ وَالْقَبُولِ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

(الْحَمْدُ للهِ)

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْحَمْدُ) الْحَاءُ وَالْمِيمُ وَالدَّالُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الذَّمِّ. يُقَالُ حَمِدْتُ فُلَانًا أَحْمَدُهُ. وَرَجُلٌ مَحْمُودٌ وَمُحَمَّدٌ، إِذَا كَثُرَتْ خِصَالُهُ الْمَحْمُودَةُ غَيْرُ الْمَذْمُومَةِ. وَالْحَمْدُ: ثَنَاءٌ يَتَضَمَّنُ الْحُبَّ وَالتَّعْظِيمَ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ.

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْحَمْدُ قَدْ يَكُونُ شُكْرًا لِلصَّنِيعَةِ، وَيَكُونُ ابْتِدَاءً لِلثَّنَاءِ عَلَى الرَّجُلِ، فَحَمْدُ اللَّهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ شُكْرًا لِنِعَمِهِ الَّتِي شَمِلَتِ الْكُلَّ، أَمَّا الشُّكْرُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا ثَنَاءً لِيَدٍ أُولِيتَهَا(١).

وَلِلْعُلَمَاءِ فِي حَدِّ الْحَمْدِ لُغَةً عِبَارَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ، عَلَى قَصْدِ التَّعْظِيمِ.

وَالْأُخْرَى: أَنَّهُ الْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ الِاخْتِيَارِيِّ، عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ(٢).

وَمَعْنَى الِاخْتِيَارِ هُنَا: أَيْ: الْحَاصِلُ بِاخْتِيَارِ الْمَحْمُودِ؛ كَالْجُودِ، وَالْعَفْوِ، وَالْوَفَاءِ، وَالنُّصْرَةِ، وَنَحْوِهَا.

وَخَرَجَ بِقَيْدِ (الِاخْتِيَارِ): الْوَصْفُ الْجَمِيلُ الَّذِي لَا يَكُونُ خَاضِعاً لِاخْتِيَارِ الْمَحْمُودِ؛ كَطُولِهِ، وَوَضَاءَتِهِ، وَعُلُوِّ نَسَبِهِ.

وَلَمَّا كَانَتْ صِفَاتُ اللهِ كَامِلَةَ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ؛ كَانَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ الْكَامِلَ الْمُطْلَقَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَصَفَ اللهَ تَعَالَى بِصِفَاتِ كَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَجَمَالِهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ؛ فَقَدْ حَمِدَهُ، وَإِذَا وَصَفَ الْمَخْلُوقَ بِمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِهَا؛ فَقَدْ

---

(١) الأزهري/تهذيب اللغة(٤/ ٢٥١ وما بعدها).

(٢)انظر: عبد الرحمن آل الشيخ/فتح المجيد(ص١٣).

حَمِدَهُ.

عَلَى أَنَّ الْحَمْدَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى وُجُودِ إِحْسَانٍ، وَإِنْعَامٍ مِنَ الْمَحْمُودِ عَلَى الْحَامِدِ؛ بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِاتِّصَافِهِ الْمَحْمُود بِصِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ.

وَبِهَذَا التَّقْدِيمِ يُمْكِنُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ؛ فَإِنَّ الشُّكْرَ يَنْشَأُ بِسَبَبِ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ، وَإِنَّ الْحَمْدَ يَنْشَأُ بِاتِّصَافِ الْمَحْمُودِ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ كَوْنِهِ أَحْسَنَ إِلَيْكَ أَوْ لَا؛ فَكَانَ أَعَمَّ مِنَ الشُّكْرِ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ الشُّكْرَ أَعَمُّ مِنَ الْحَمْدِ مِنْ جِهَةِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا وَهِيَ: الْقَلْبُ، وَاللِّسَانُ، وَالْجَوَارِحُ، لَكِنَّهُ أَخَصُّ مِنَ الْحَمْدِ مِنْ جِهَةِ السَّبَبِ الْبَاعِثِ عَلَيْهِ؛ لِكَوْنِهِ يَسُوغُ عِنْدَ حُصُولِ النِّعْمَةِ مِنَ الْمَحْمُودِ، وَيَسُوغُ لِاتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْجَمَالِ وَإِنْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ لِلْحَامِدِ نِعْمَةٌ.

وَالْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ، كَمَا أَنَّ كَلِمَةَ الْإِخْلَاصِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ هِيَ رَأْسُ الْإِيمَانِ؛ وَقَدْ رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ، مَا شَكَرَ اللهَ عَبْدٌ لَا يَحْمَدُهُ)**[1].

قَالَ الْهَرَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "قَالَ الْمَشْيَخَةُ مِنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ: الشُّكْرُ ثَلَاثُ مَنَازِلَ؛ شُكْرُ الْقَلْبِ، وَهُوَ الاعْتِقَادُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَلِيُّ النِّعَمِ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾[النَّحْلُ: ٥٣].

وَشُكْرُ اللِّسَانِ، وَهُوَ إِظْهَارُ النِّعْمَةِ بِاللِّسَانِ مَعَ الذِّكْرِ الدَّائِمِ للهِ ﷻ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾[الضُّحَى: ١١].

وَشُكْرُ الْعَمَلِ، وَهُوَ إِيدَابُ النَّفْسِ بِالطَّاعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾[سَبَأُ:١٣][2].

وَالْحَمْدُ: يَتَضَمَّنُ الْحُبَّ وَالتَّعْظِيمَ، وَالْمَحْمُودُ هُوَ الْمَحْبُوبُ الْمُعَظَّمُ.

وَالْحَمْدُ: اسْمُ جِنْسٍ دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَامُ الاسْتِغْرَاقِ، فَشَمِلَ جَمِيعَ الْمَحَامِدِ عَنْ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ، وَقِيلَ اللام: لِلْجِنْسِ.

---

(١) ضعيف، أخرجه: البيهقي/شعب الإيمان(٤٠٨٥)(٦/٢٣٠).

(٢) السمين الحلبي/عمدة الحفاظ(١/٤٥١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحَمْدُ الْكَامِلُ لَهُ يَقْتَضِي ثُبُوتَ كُلِّ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ، مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ، إِذْ مَنْ عُدِمَ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَغَايَتُهُ: أَنَّهُ مَحْمُودٌ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، وَلَا يَكُونُ مَحْمُودًا بِكُلِّ وَجْهٍ وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ، بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْحَمْدِ إِلَّا مَنِ اسْتَوْلَى عَلَى صِفَاتِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا، فَلَوْ عُدِمَ مِنْهَا صِفَةً وَاحِدَةً لَنَقَصَ مِنْ حَمْدِهِ بِحَسَبِهَا[1].

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (للهِ) اللَّامُ فِي الْعَرَبِيَّةِ لِلِاخْتِصَاصِ مَا يَعْنِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ.

فَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا، وَبِيَدِهِ فَنَاؤُهَا.

فَهُوَ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، وَالْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَهُوَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ الرَّافِعُ، الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ، الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ، اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الْعَنْكَبُوتُ: ٦٠-٦٣].

وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، لَمَّا تَفَرَّدَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ اسْتَحَقَّ أَنْ يَتَفَرَّدَ فِي الْأُلُوهِيَّةِ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْمَأْلُوهُ الَّذِي تَأْلَهُهُ الْقُلُوبُ مَحَبَّةً وَتَوَكُّلًا وَخَوْفًا وَرَجَاءً وَاسْتِعَانَةً وَاسْتِغَاثَةً.

فَأَلِهَتْهُ الْقُلُوبُ بِغَايَةِ الْحُبِّ، وَغَايَةِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ؛ لِتَفَرُّدِهِ بِكَمَالِ الْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ دُونَ غَيْرِهِ، فَنَجَا بِتَفَرُّدِهِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ الْخَلْقُ مِنْ فَسَادِ الشِّرْكِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١١١].

وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى؛ صِفَاتُ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ، وَمَا مِنِ اسْمٍ وَلَا صِفَةٍ لَهُ سُبْحَانَهُ إِلَّا وَلَهُ مُتَعَلَّقٌ تَقُومُ بِهِ

---

(١) ابن القيم/مدارج السالكين(١/٨٦).

مَصَالِحُ الْأَنَامِ عَلَى هَنَاءَةٍ وَمَرَاءَةٍ وَسَلَامٍ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ أَنْتَ الْحَقُّ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ أَنْتَ إِلَهِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ»[(١)].

وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى وَحْيِهِ وَشَرْعِهِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ هُدًى وَنُورًا وَصِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، نَجَاةً لِمَنِ اتَّبَعَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الْمَائِدَةُ: ١٥-١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَى:٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الْكَهْفُ: ١ - ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُسُ: ٥٧].

وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَإِنَّهُ مَحْضُ حَقٍّ وَحِكْمَةٍ وَعَدْلٍ وَمَصْلَحَةٍ حَتَّى وَإِنْ وَرَدَ فِي ثَوْبِ الشِّدَّةِ وَالْكُرْهِ، يُنْبِيكَ عَنْ ذَلِكَ آيَاتٌ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا، وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٧٤٤٢)(٩/١٣٢)، مسلم/صحيحه(٧٦٩)(١/٥٣٢).

﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الْكَهْفُ: ٧٩ - ٨٢].

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ) الصَّلَاةُ فِي اللُّغَةِ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الدُّعَاءُ، وَالثَّانِي: الْعِبَادَةُ.

أَمَّا الصَّلَاةُ دُعَاءٌ: فَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٠٣]، أَي: ادْعُ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ لِذُنُوبِهِمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ مِنْهَا، فَإِنَّ دُعَاءَكَ وَاسْتِغْفَارَكَ طُمَأْنِينَةٌ لَهُمْ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ عَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي حق الْمُنَافِقِين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٨٤].

أَيْ: وَلَا تُصَلِّ -أَيُّهَا الرَّسُولُ- أَبَدًا عَلَى أَحَدٍ مَاتَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ لِتَدْعُوَ لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِرَسُولِهِ ﷺ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ[٢].

وَقَوْلُهُ ﷺ: **(إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَأْكُلْ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ)**[٣]، أَيْ فَلْيَدْعُ لَهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ[٤].

وَالدُّعَاء نَوْعَانِ: دُعَاءُ عِبَادَةٍ، وَدُعَاءُ مَسْأَلَةٍ، وَالْعَابِدُ دَاعٍ كَمَا أَنَّ السَّائِلَ دَاعٍ، وَبِهِمَا فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافِرُ: ٦٠]، قيل: أَطِيعُونِي أُثِبْكُمْ، وَقِيلَ سَلُونِي أُعْطِكُمْ، وَفُسِّرَ بِهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٨٦].

وَالصَّوَابُ أَنَّ الدُّعَاءَ يَعُمُّ النَّوْعَيْنِ[٥].

وَأَمَّا عَنْ كُنْهِ صَلَاتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى نَبِيِّهِ، فَقَدْ تَبَايَنَتْ آرَاءُ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ:

---

(١) الطبري/تفسيره(١٤/٤٥٤).

(٢)مجموعة من علماء التفسير/التفسير الميسر(١/٢٠٠).

(٣) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(٢٤٦٠)(٢/٣٣١).

(٤) ابن القيم/جلاء الأفهام(١٥٦).

(٥) ابن القيم/جلاء الأفهام(ص١٥٥).

قِيلَ: دُعَاءٌ بِرَفْعِ الذِّكْرِ وَالْمَنْزِلَةِ، فَقَوْلُهُ: (**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ**) أَيْ: اللَّهُمَّ ارْفَعْ قَدْرَهُ فِي الدُّنْيَا بِإِعْلَاءِ ذِكْرِهِ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ، وَإِبْقَاءِ شَرِيعَتِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِتَشْفِيعِهِ فِي أُمَّتِهِ، وَإِجْزَالِ أَجْرِهِ وَمَثُوبَتِهِ، وَإِبْدَاءِ فَضْلِهِ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ بِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى كَافَّةِ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ"[1].

وَتَفْسِيرُ (**صَلِّ عَلَيْهِ**) بِالتَّعْظِيمِ لَا يُنَافِي عَطْفَ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ تَعْظِيمَ كُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِ مَا يَلِيقُ بِهِ.

وَقِيلَ: صَلَاةُ اللهِ رَحْمَتُهُ، وَنَقَلَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنِ الثَّوْرِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَنُقِلَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَيْضًا، وَعَنِ الضَّحَّاكِ، وَجَرَى عَلَيْهِ الْمُبَرِّدُ وَابْنُ الْأَعْرَابِيِّ، وَالْإِمَامُ الْمَاوَرْدِيُّ وَقَالَ: "إِنَّ ذَلِكَ أَظْهَرُ الْوُجُوهِ"، وَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، وَالْآمِدِيُّ، وَالزَّمَخْشَرِيُّ حَيْثُ قَالَ: "لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْمُصَلِّي أَنْ يَنْعَطِفَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ.. اسْتُعِيرَ لِمَنْ يَنْعَطِفُ عَلَى غَيْرِهِ حُنُوًّا عَلَيْهِ وَتَرَؤُّفًا، كَعَائِدِ الْمَرِيضِ فِي انْعِطَافِهِ عَلَيْهِ، وَالْمَرْأَةِ فِي حُنُوِّهَا عَلَى وَلَدِهَا، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اسْتُعْمِلَ فِي الرَّحْمَةِ وَالتَّرَؤُّفِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ» أَيْ: تَرَحَّمَ وَتَرَأَّفَ.

وَقِيلَ: هِيَ الاسْتِغْفَارُ، وَنَقَلَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلٍ، وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ، وَرَجَّحَهُ الْقَرَافِيُّ، وَجَرَى عَلَيْهِ الْبَيْضَاوِيُّ وَغَيْرُهُ[2].

وَقِيلَ: صَلَاةُ اللهِ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بِمَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَرَفْعِ ذِكْرِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ أَنَّ مَعْنَى صَلَاةِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ وَتَعْظِيمُهُ.

وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ عَلَيْهِ مِنْ مُؤْمِنِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَيِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ- مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمُرَادُ طَلَبُ الزِّيَادَةِ لَا طَلَبُ أَصْلِ الصَّلَاةِ[3].

---

(١) البيهقي/شعب الإيمان(٢/١٣٣-١٣٤).

(٢) ابن حجر الهيتمي/الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود(ص: ٤٠)، ابن القيم/جلاء الأفهام(١٥٨).

(٣) ابن حجر/فتح الباري(١١/١٥٦) بتصرف.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَلَى آلِهِ) (الْآلُ): أَصْلُهُ أَهْلٌ، أُبْدِلَت الْهَاءُ هَمْزَةً، فَصَارَتْ: أَأْلُ، تَوَالَتْ هَمْزَتَانِ، فَأُبْدِلَتِ الثَّانِيَةُ أَلِفاً فصَارَ: آل، وَتَصْغِيرُهُ: أُوَيْلٌ، وَأُهَيْلٌ[1].

وَالْأَهْلُ: هُمُ الزَّوْجَةُ وَالْوَلَدُ مِنَ الْأَبْنَاءِ وَالْبَنَاتِ، فَأَهْلُ النَّبِيِّ ﷺ هُمْ أَزْوَاجُهُ، كَمَا رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الْأَحْزَابُ: ٣٣] قَالَ: نَزَلَتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ[2].

وَقَالُوا: أَهْلُ النَّبِيِّ أَزْوَاجُهُ، وَفَاطِمَةُ وَعَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعَرٍ أَسْوَدَ، فَجَلَسَ فَأَتَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا فِيهِ ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ فِيهِ ثُمَّ جَاءَ حَسَنٌ فَأَدْخَلَهُ فِيهِ، ثُمَّ جَاءَ حُسَيْنٌ فَأَدْخَلَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**)[3].

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: فِي بَيْتِي أُنْزِلَتْ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٣٣] قَالَتْ: فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى فَاطِمَةَ وَعَلِيٍّ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، فَقَالَ: (**هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي**)، قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا أَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ؟ قَالَ: (**بَلَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ**)[4].

وَقَالُوا: أَهْلُ الرَّجُلِ وعِيالُه، وأَتْباعه وأولياؤه، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: (**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**)[5]، وَلَا يُستَعْمَل الآلُ إلاَّ فِيمَا فِيهِ شَرَفٌ غالِباً، فَلَا يُقال: آلُ الإِسْكَافِ، كَمَا يُقَالُ: أَهْلُهُ[6].

وَاخْتَلَفُوا فِي آلِ النَّبِيِّ ﷺ:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ حُرِّمَ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ، وَعُوِّضُوا مِنْهَا خُمُسَ خُمُسِ الْغَنِيمَةِ

---

(١) الفيروز آبادي/القاموس المحيط(ص ٩٦٣)، الزبيدي/تاج العروس(٢٨/٣٧).

(٢) السيوطي/الدر المنثور(٦/٦٠٣).

(٣) أخرجه: مسلم/صحيحه(٢٤٢٤)(٤/١٨٨٣).

(٤) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٨٧١)(٥/٦٩٩).

(٥) ضعيف، أخرجه: الطبراني/المعجم الكبير(٦٠٤٠)(٦/٢١٢).

(٦) الفيروز آبادي/القاموس المحيط(ص: ٩٦٣)؛ الزبيدي/تاج العروس(٢٨/٣٧).

وَالْفَيْءِ، وَهُمْ صَلِيبَةُ بَنِي الْهَاشِمِ، وَبَنِي الْمُطَّلِبِ؛ فَعَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّدَقَةِ: **(إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، وَلا لآلِ مُحَمَّدٍ)**[1].

وَعَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ، وَقِيلَ لَهُ: مَنَ آلُ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: «مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ؟» قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ الْعَبَّاسِ»[2].

وَبِهِ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، وَابْنُ تَيْمِيَّةَ، وَغَيْرُهُمَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ[3].

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: آلُ الْبَيْتِ: بَنُو هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي سَنَدِهِ: عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطَيْتَ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَتَرَكْتَنَا، وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(إِنَّمَا بَنُو الْمُطَّلِبِ، وَبَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ)**[4]، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: آلُهُ: كُلُّ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: آلُهُ: أُمَّتُهُ[5].

وَقَالَ الْعَيْنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ آلَ الرَّسُولِ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ: أَوْلَادُ عَلِيٍّ، وَعَبَّاسٍ، وَجَعْفَرَ، وَعَقِيلٍ، وَمِنْ جِهَةِ السَّبَبِ: كُلُّ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[6].

وَأَرَى أَنَّ أَهْلَ النَّبِيِّ ﷺ هُمْ: أَزْوَاجُهُ وَأَوْلَادُهُ وَآلُ عَلِيٍّ، وَآلُ جَعْفَرَ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَسَلَّمَ) (سَلِمَ) السِّينُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ مُعْظَمُ بَابِهِ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، والسَّلَامُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَدَارُهُ الْجَنَّةُ[7].

وَمَعْنَى السَّلَامِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ سَلَّمْتُ أَنَّهُ دُعَاءٌ لِلْإِنْسَانِ، بِأَنْ يَسْلَمَ مِنَ الْآفَاتِ فِي دِينِهِ

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٠٧٢)(٢/٧٥٤).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(٢٤٠٨)(٤/١٨٧٣).

(٣) انظر: ابن تيمية/مجموع الفتاوى(٣/٤٠٨).

(٤) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣١٤٠)(٤/٩١).

(٥) البغوي/شرح السنة(٣/١٩٣).

(٦) العيني/شرحه على أبي داود(٤/٢٥٩).

(٧) ابن فارس/مقاييس اللغة(٣/٩٠).

وَنَفْسِهِ[1].

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (السَّلَامُ) قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّلَامِ: اسْمُ اللهِ ﷻ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **(إِنَّ اللَّهَ هو السَّلامُ)**[2] كَمَا قَالَ ﷻ فِي كِتَابِهِ: ﴿**الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ**﴾ [الْحَشْرُ: ٢٣] وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّ سَلَامَ اللهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بِالحِفْظِ وَالْكَلَاءَةِ وَالْعِنَايَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَكَأَنَّنَا نَقُولُ: اللَّهُ عَلَيْكَ، أَيْ: رَقِيبٌ حَافِظٌ مُعْتَنٍ بِكَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: **(السَّلَامُ)** اسْمُ مَصْدَرِ سَلَّمَ بِمَعْنَى التَّسْلِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الْأَحْزَابُ: ٥٦] فَمَعْنَى التَّسْلِيمِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ: أَنَّنَا نَدْعُو لَهُ بِالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ يَكُونُ هَذَا الدُّعَاءُ فِي حَيَاتِهِ ﷺ وَاضِحاً، لَكِنْ بَعْدَ مَمَاتِهِ كَيْفَ نَدْعُو لَهُ بِالسَّلَامَةِ وَقَدْ مَاتَ ﷺ؟

فَالْجَوَابُ: لَيْسَ الدُّعَاءُ بِالسَّلَامَةِ مَقْصُوراً فِي حَالِ الْحَيَاةِ، فَهُنَاكَ أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا كَانَ دُعَاءُ الرُّسُلِ إِذَا عَبَرَ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ: **«اللَّهُمَّ، سَلِّمْ؛ سَلِّمْ»**، فَلَا يَنْتَهِي الْمَرْءُ مِنَ الْمَخَاوِفِ وَالْآفَاتِ بِمُجَرَّدِ مَوْتِهِ.

إِذاً؛ نَدْعُو لِلرَّسُولِ ﷺ بِالسَّلَامَةِ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ، وَنَقُولُ أَيْضاً: قَدْ يَكُونُ بِمَعْنًى أَعَمَّ، أَيْ: أَنَّ السَّلَامَ عَلَيْهِ يَشْمَلُ السَّلَامَ عَلَى شَرْعِهِ وَسُنَّتِهِ، وَسَلَامَتَهَا مِنْ أَنْ تَنَالَهَا أَيْدِي الْعَابِثِينَ؛ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النِّسَاءُ: ٥٩] قَالُوا: إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، وَإِلَى سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ[3].

(١) الأزهري/تهذيب اللغة(١٢/٣٠٩).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٨٣١)(١/١٦٦)، مسلم/صحيحه(٤٠٢)(١/٣٠١).

(٣) ابن عثيمين/الشرح الممتع(٣/١٤٩).

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

قَوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كِتَابُ) كَتَبَ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، يُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، وَالْكِتَابُ: اسْمٌ لِمَا كُتِبَ مَجْمُوعاً.

وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْفَرْضِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٨٣] فُرِضَ، وَبِمَعْنَى الْحُكْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [الْبَيِّنَةُ: ٢-٣]، أَيْ أَحْكَامٌ مُسْتَقِيمَةٌ[١]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى)[٢]، أَيْ بِحُكْمِ اللهِ.

وَالْكِتَابُ اصْطِلَاحاً: اسْمٌ لِجُمْلَةٍ مُخْتَصَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَيُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْبَابِ وَبِالْفَصْلِ أَيْضًا، فَإِنْ جَمَعَ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ، قِيلَ: الْكِتَابُ اسْمٌ لِجُمْلَةٍ مُخْتَصَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى أَبْوَابٍ وَفُصُولٍ غَالِبًا. وَالْبَابُ اسْمٌ لِجُمْلَةٍ مُخْتَصَّةٍ مِنْ الْكِتَابِ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى فُصُولٍ غَالِبًا. وَالْفَصْلُ اسْمٌ لِجُمْلَةٍ مُخْتَصَّةٍ مِنْ الْبَابِ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى مَسَائِلَ غَالِبًا[٣].

وَقَوْلُهُ: **(كِتَابُ التَّوْحِيدِ)** خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: هَذَا كِتَابُ التَّوْحِيدِ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(التَّوْحِيدِ) التَّوْحِيدُ لُغَةً:** مَصْدَرٌ لِلفِعْلِ الثُّلَاثِيِّ الْمَزِيدِ بِتَضْعِيفِ عَيْنِهِ، يُقَالُ: وَحَّدَ يُوَحِّدُ تَوْحِيدًا، وَتَوْحِيدٌ عَلَى وَزنِ تَفْعِيلٍ، **وَيَعْنِي:** الْوِحْدَةُ، وَالانْفِرَادُ.

وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّفْعِيلِ: النِّسْبَةُ وَلَيْسَ الْجَعْلَ، كَقَوْلِكَ: **وَحَّدْتُ اللهَ:** أَيْ: نَسَبْتُهُ إِلَى الْوَحْدَانِيَّةِ، لَا جَعَلْتُهُ وَاحِدًا؛ لِأَنَّ وَحْدَانِيَّةَ اللهِ صِفَةُ ذَاتٍ لَهُ، لَمْ تَكُنْ بِجَعْلِ جَاعِلٍ.

وَمِنْ نَظَائِرِهِ: التَّصْدِيقُ، تَقُولُ: صَدَّقْتُ فُلَاناً؛ أَيْ: نَسَبْتُ لَهُ الصِّدْقَ، لَا جَعَلْتُهُ صَادِقاً.

وَالتَّوْحِيدُ: فِعْلُ الْمُكَلَّفِ بِقَلْبِهِ وَجَارِحَتِهِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْوَحْدَةِ، وَيَعْنِي: أَنَّ الْمَعْبُودَ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَهُوَ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ مِنْ خَلْقِهِ.

وَالتَّوْحِيدُ شَرْعاً: "إِفْرَادُ الْمَعْبُودِ بِالْعِبَادَةِ مَعَ اعْتِقَادِ وَحْدَتِهِ ذَاتاً وَصِفَاتٍ وَأَفْعَالاً"[٤].

---

(١) انظر: ابن فارس/مقاييس اللغة(٥/١٥٨-١٥٩).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٦٩٥)(٣/١٨٤)، مسلم/صحيحه(١٦٩٧)(٣/١٣٢٤).

(٣) الشربيني/مغني المحتاج(١/١١٤).

(٤) السفاريني/لوامع الأنوار البهية(١/٥٧).

وَقَالُوا هُوَ: "اعْتِقَادُ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي مُلْكِهِ وَأَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ لَا نَظِيرَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا نِدَّ لَهُ"[1].

وَالْأَسْهَلُ أَنْ يُقَالَ فِي حَدِّهِ: هُوَ إِفْرَادُ اللهِ فِي ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَعِبَادَتِهِ.

وَاسْتَهَلَّ الْإِمَامُ ابْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ التَّوْحِيدِ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ، بِدَأَهَا بِ:

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦].

مِنْ وُجُوهِ تَأْوِيلِهَا: أَنَّهَا خَبَرٌ يَنْفِي بِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ الْعَبَثَ مِنْ خَلْقِهِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ، أَوْ مَنْفَعَةً لِنَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ؛ بَلْ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ بِالْخُضُوعِ وَالْحُبِّ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى.

وَمِنْ وُجُوهِ التَّأْوِيلِ: أَنَّ اللهَ مَا خَلَقَهُمْ إِلَّا مُسْتَعِدِّينَ لِلْعِبَادَةِ أَتَمَّ اسْتِعْدَادٍ، مُتَمَكِّنِينَ مِنْهَا أَكْمَلَ تَمَكُّنٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، كَقَوْلِهِمْ: الْبَقَرُ مَخْلُوقَةٌ لِلْحَرْثِ، أَيْ: قَابِلَةٌ لِذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا مَنْ لَا يَحْرُثُ. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الشَّيْءِ مُعَدًّا لِشَيْءٍ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ جَمِيعُ ذَلِكَ.

وَمِنْ وُجُوهِ التَّأْوِيلِ: أَنَّ اللهَ مَا خَلَقَهُمْ إِلَّا لِيَتَذَلَّلُوا لَهُ، وَيَخْضَعُوا لِعَظَمَتِهِ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً؛ إِذْ كُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ مُنْقَادٌ لِعَظَمَتِهِ وَقَهْرِهِ، عَابِدٌ لَهُ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى قَوَاعِدِ شَرْعِهِ. وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الْقَدَرِ[2].

وَزِيَادَةً فِي الْبَيَانِ؛ فَإِنَّ الْعُبُودِيَّةَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: عُبُودِيَّةٌ عَامَّةٌ: وَهِيَ عُبُودِيَّةُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهِيَ لِكُلِّ الْخَلْقِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مَرْيَمُ: ٩٣]، أَيْ: خَاضِعاً وِفْقَ قَدَرِهِ قَهْراً وَإِجْبَاراً، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْكُفَّارُ.

الثَّانِي: عُبُودِيَّةٌ خَاصَّةٌ: وَهِيَ عُبُودِيَّةُ الطَّاعَةِ الْعَامَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ [الْفُرْقَانُ: ٦٣] وَهَذِهِ تَعُمُّ كُلَّ مَنْ تَعَبَّدَ للهِ بِشَرْعِهِ طَوَاعِيَةً وَاخْتِيَاراً[3].

---

(١) سليمان آل الشيخ/تيسير العزيز الحميد(ص١٧).

(٢)ابن عجيبة/البحر المديد(٧/٢١٦).

(٣)انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٣٣):

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النَّحْلُ:٣٦].

يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى بِهَذَا الخَبَرِ أَنَّ الْبَعْثَةَ أَمْرٌ جَرَتْ بِهِ السُّنَّةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي الْأُمَمِ كُلِّهَا، جَعَلَهَا سَبَبًا لِهُدَى مَنْ أَرَادَ اهْتِدَاءَهُ، وَضَلَالًا لِمَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ، كَالْغِذَاءِ الصَّالِحِ؛ فَإِنَّهُ يَنْفَعُ المِزَاجَ السَّوِيَّ الْمُعْتَدِلَ وَيُقَوِّيهِ، وَيَضُرُّ الْمِزَاجَ الْمُنْحَرِفَ وَيُعْيِيهِ؛ فَأَخْبَرَ اللهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾؛ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ، وَإِبْدَاءً لِلْعُذْرِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ عَدْلِ اللهِ فِي عِبَادِهِ، يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِرُ: ٢٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرَّعْدُ: ٧] قَامَ فِي النَّاسِ يَأْمُرُهُمْ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ أَيْ: أَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي شَرَعَهَا لَكُمْ بِكَمَالِ خُضُوعِكُمْ وَانْقِيَادِكُمْ وَكَمَالِ حُبِّكُمْ لَهُ ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أَيْ: وَاتْرُكُوا عِبَادَةَ مَنْ سِوَاهُ مِنْ إِنْسٍ، وَجِنٍّ، وَمَلَكٍ، وَحَجَرٍ، وَشَجَرٍ، وَغَيْرِهِمْ.

وَالطَّاغُوتُ فِي تَأْوِيلِ السَّلَفِ: الْأَوْثَانُ؛ **قَالَ السُّدِّيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:** ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أَيِ: الْأَوْثَانُ[1].

وَقَالَ مُقَاتِلٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أَيْ: عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ[2].

وَالطَّاغُوتُ: مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ **قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ** ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: أَيْ: كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ[3].

وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ؛ **قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ:** الطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ[4].

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الشَّيْطَانُ؛ هُوَ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ[5].

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ؛ فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ

---

(١)يحيى بن سلام/تفسيره(١/٦٣).

(٢)مقاتل/تفسيره(٢/٤٦٨).

(٣)ابن وهب/تفسيره–من الجامع(٢/١٣٥).

(٤)مجاهد/تفسيره(٢٨٤).

(٥)يحيى بن سلام/تفسيره(١/٦٣).

يَتْبَعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ، أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ[1].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٢٣].

قَوْلُهُ: ﴿وَقَضَى﴾ فِي الْآيَةِ: حَكَمَ وَأَوْجَبَ وَأَمَرَ، لَا بِمَعْنَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا عُبِدَ غَيْرُ اللهِ، وَفِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: (وَوَصَّى رَبُّكَ..).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أُسْلُوبُ حَصْرٍ؛ يُؤْذِنُ بِتَعْظِيمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَفْرِيدِهِ بِالْعِبَادَةِ بِكَمَالِ الْخُضُوعِ وَالْحُبِّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُ نِهَايَةُ الْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيْ: وَبِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي بِرِّهِمَا.

وَحِكْمَةُ مُجَاوَرَةِ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَالْإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ: التَّنْبِيهُ إِلَى أَنَّهُ لَا نِعْمَةَ تَبْلُغُ الْإِنْسَانَ أَكْثَرُ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ نِعْمَةُ وَالِدَيْهِ، فَبَدَأَ بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ أَرْدَفَهَا بِشُكْرِ نِعْمَةِ الْوَالِدَيْنِ.

قَالَ ابْنُ عَجِيبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لِأَنَّهُمَا السَّبَبُ الظَّاهِرُ فِي وُجُودِ الْعَبْدِ، وَبِهِمَا قَامَتْ نِعْمَةُ الْإِمْدَادِ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالْحِفْظِ فِي مَظَاهِرِ الْحِكْمَةِ، وَإِلَّا فَمَا ثَمَّ إِلَّا تَرْبِيَةُ الْحَقِّ تَعَالَى، ظَهَرَتْ فِي مَظَاهِرِ الْوَالِدَيْنِ، لَكِنْ أَمَرَ بِشُكْرِ الْوَاسِطَةِ (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ)[2].

وَفِي اقْتِرَانِ الْإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ بِعِبَادَةِ اللهِ دَلِيلٌ عَلَى تَأَكُّدِ حَقِّهِمَا، وَأَنَّهُ أَوْجَبُ الْحُقُوقِ بَعْدَ حَقِّ اللهِ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النِّسَاءُ: ٣٦].

أَيِ: امْتَثِلُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَنُهِيتُمْ عَنْهُ فِي كِتَابِ رَبِّكُمْ، وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ، بِحُبٍّ وَخُضُوعٍ وَانْقِيَادٍ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَةَ: هِيَ الْخُضُوعُ للهِ بِمَا شَرَعَ عَلَى وَجْهِ الْحُبِّ وَالِانْقِيَادِ.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ جَلِيًّا كَانَ أَوْ خَفِيًّا فِي مُعْتَقَدَاتِكُمْ أَوْ عِبَادَاتِكُمْ[3].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ

---

(١)ابن القيم/إعلام الموقعين(١/٤٠).

(٢)ابن عجيبة/البحر المديد(٧/٢١٦).

(٣)انظر: المراغي/تفسيره(٥/٣٣).

الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْآنَاتِ وَالْحَالَاتِ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوَحِّدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ[1].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٥١-١٥٣].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٥٣] الْآيَةَ[2].

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ **قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:** قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِرَبِّهِمُ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، الزَّاعِمِينَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مُحَرِّمُوهُ مِنْ حُرُوثِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ فِي تَنْزِيلِي عَلَيْكَ: تَعَالَوْا أَيُّهَا الْقَوْمُ أَقْرَأْ عَلَيْكُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ حَقًّا يَقِينًا، لَا الْبَاطِلَ، تَخَرُّصًا كَخَرْصِكُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَالْفِرْيَةَ ظَنًّا، وَلَكِنْ وَحْيًا مِنَ اللَّهِ أَوْحَاهُ إِلَيَّ، وَتَنْزِيلًا أَنْزَلَهُ عَلَيَّ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا تَعْدِلُوا بِهِ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، وَلَا تَعْبُدُوا شَيْئًا سِوَاهُ[3].

وَأَفَادَ الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ الْجُمَلُ الْمُتَعَاطِفَةُ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ قَدِ انْقَسَمَتْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

---

(١)ابن كثير/تفسيره(٢/ ٢٩٧).

(٢)حسن، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٠٧٠)(٥/١٥٥).

(٣)الطبري/تفسيره(٩/ ٦٥٦).

الْأَوَّلُ: أَحْكَامٌ بِهَا إِصْلَاحُ الْحَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَامَّةِ بَيْنَ النَّاسِ وَهُوَ مَا افْتُتِحَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾.

الثَّانِي: مَا بِهِ حِفْظُ نِظَامِ تَعَامُلِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ وَهُوَ الْمُفْتَتَحُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٥٢].

الثَّالِثُ: أَصْلٌ كُلِّيٌّ جامِعٌ لِجَمِيعِ الْهُدَى وَهُوَ اتِّبَاعُ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْهُ إِلَى سُبُلِ الضَّلَالِ وَهُوَ الْمُفْتَتَحُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٥٣].

وَقَدْ ذُيِّلَ كُلُّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ بِالْوِصَايَةِ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1].

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾؛ ﴿تَعَالَوْا﴾ فِعْلُ أَمْرٍ يُؤْمَرُ بِهِ مَنْ يُرَادُ صُعُودُهُ إِلَى مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ فَوْقَ مَكَانِهِ، ثُمَّ شَاعَ إِطْلَاقُهُ عَلَى طَلَبِ الْمَجِيءِ مُطْلَقاً.

وَالْمَعْنَى: تَعَالَوْا –وَالْخِطَابُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ– أَسْرُدُ عَلَيْكُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ.

وَقَدِ اسْتَهَلَّهَا بِالْأَخْطَرِ الَّذِي يَمَسُّ الدِّينَ، وَهُوَ أَقْدَسُ الْمَقَاصِدِ وَأَشْرَفُهَا، وَهُوَ حَقُّ اللهِ عَلَى الْعَالَمِينَ؛ فَقَالَ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أَيْ: لَا تَتَّخِذُوا شَيْئاً تُشْرِكُونَهُ مَعَ اللهِ، وَ ﴿شَيْئاً﴾ نَكِرَةٌ؛ تَشْمَلَ كُلَّ شَرِيكٍ؛ إِنْساً وَجِنّاً وَمَلَكاً وَغَيْرَهَا مِنْ ذَوَاتِ الْحَيَاةِ أَوِ الْجَمَادَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيْ: وَأَحْسِنُوا لِلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانَاً، وَيُفِيدُ بِضِدِّهِ النَّهْيَ عَنِ الْإِسَاءَةِ بِطَرِيقِ فَحْوَى الْخِطَابِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ فَإِنَّهُ ذَنْبٌ مُرَكَّبٌ مِنْ قَتْلِ مُحَرَمٍ قَرِيبٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَاسْتِدْفَاعاً لِلْفَقْرِ الَّذِي يُومِئُ بِمُعْتَقَدٍ فَاسِدٍ؛ أَنَّ الرِّزْقَ بِيَدِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ النَّفَقَةَ عَلَى الْوَلَدِ تُنْقِصُ الرِّزْقَ أَوْ تَذْهَبُ بِهِ.

وَقَدْ رَدَّهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُودُ: ٦]، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْبَحِ الذُّنُوبِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: (أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ

---

(١)ابن عاشور/التحرير والتنوير(٨/١٥٦).

نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)، قَالَ: ثُمَّ أَيْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ)[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ عِلَّةٌ لِلنَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْوَلَدِ، وَإِبْطَالٌ لِعُذْرِ قَاتِلِهِ؛ فَإِنَّهُ خَبَرٌ صَرِيحٌ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مُتَفَرِّدٌ بِرِزْقِ الْآبَاءِ وَالْأَوْلَادِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: لَفْظٌ عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ فُحْشٍ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وَهِيَ النَّفْسُ الْمَعْصُومَةُ؛ مُؤْمِنَةٌ أَوْ ذِمِّيَّةٌ أَوْ مُسْتَأْمَنَةٌ، وَتَشْمَلُ مَنْ لَا دَخْلَ لَهُمْ فِي حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، كَالنِّسَاءِ، وَالصِّغَارِ، وَالْمَرْضَى، وَالشُّيُوخِ، وَالْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وَهُوَ مَا قَامَ بِهِ دَلِيلُ السَّمْعِ، كَحَرْبِيٍّ، أَوْ مُرْتَدٍّ، أَوْ زَانٍ مُحْصَنٍ، أَوْ قَاتِلٍ مُتَعَمِّدٍ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ هَاءُ الضَّمِيرِ عَائِدٌ إِلَى جَمِيعِ مَا ذُكِرَ؛ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ وَصِيَّةِ اللهِ لَكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: رَجَاءَ أَنْ تَعْقِلُوا؛ كَيْ تَحْذَرُوا الْمُخَالَفَةَ الَّتِي تُسْخِطُ اللهَ عَلَيْكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي النَّهْيِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا صُرِّحَ بِالْمَنْعِ مِنَ الِاقْتِرَابِ؛ فَإِنَّ أَكْلَهُ أَوِ انْتِهَابَهُ أَشَدُّ نَهْيًا وَإِثْمًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ كَحِفْظِهِ وَتَثْمِيرِهِ وَالْأَكْلِ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْحَاجَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أَيْ: وَابْقَوْا عَلَى حِفْظِكُمْ لِمَالِ الْيَتِيمِ حَتَّى يَبْلُغَ الْحِنْثَ، وَيُؤْنَسَ مِنْهُ الرُّشْدُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ مُرَاعَاةً لِلْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ، وَيَدُلُّ بِلَازِمِهِ عَلَى تَحْرِيمِ الْإِخْسَارِ.

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٧٥٣٢)(٩/ ١٥٥)، مسلم/صحيحه (٨٦)(١/ ٩٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِآخِرِ مَذْكُورٍ قَبْلَهَا، أَيْ: لَا نُكَلِّفُكُمْ تَمَامَ الْقِسْطِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْحَبَّةِ وَالذَّرَّةِ، وَلَكِنْ بِمُرَاعَاةِ عُرْفِ الْفَضِيلَةِ وَالْأَمَانَةِ فِي ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ عَامٌّ لِكُلِّ مَا تَقُولُونَهُ مِنْ شَهَادَةٍ، وَقَضَاءٍ، وَتَعْدِيلٍ، وَتَجْرِيحٍ، وَغَيْرِهَا.

وَاحْذَرُوا الْمُحَابَاةَ، وَالظُّلْمَ، وَالْغِشَّ، وَالزُّورَ، وَالْكَذِبَ، وَلَا تَزِيغُوا عَنِ الْحَقِّ، وَالصِّدْقِ، وَالْأَمَانَةِ لِأَجْلِ قَرَابَةٍ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النِّسَاءُ: ١٣٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أَيْ: أَوْفُوا بِمَا عُهِدَ إِلَيْكُمْ مِنْ مُلَازَمَةِ الْعَدْلِ، وَتَأْدِيَةِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ، فَإِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: فَذَلِكُمُ الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ، أَوْ نَهَيْنَاكُمْ عَنْهُ؛ هُوَ وَصِيَّةٌ مِنَ اللهِ لَكُمْ؛ كَيْ تَتَذَكَّرُوا الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، وَتَحْذَرُوا الْبَاطِلَ وَالْجَوْرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيْ: مَا جَاءَكُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْمَوَاعِظِ هِيَ هُدَى اللهِ الْمُسْتَقِيمُ؛ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تُخَالِفُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا سُبُلَ الضَّلَالَةِ وَالْغِوَايَةِ؛ فَإِنَّهَا سُبُلُ الشَّيْطَانِ الَّتِي تَقُودُكُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْمَذْكُورُ آنِفاً وَصَّاكُمْ بِهِ اللهُ؛ كَيْ تَتَّقُوا اللهَ تَعَالَى بِامْتِثَالِ الْمَأْمُورِ، وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورِ.

وَعَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: (يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟) قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً). قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: (لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قوله: (كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ) (رَدَفَ) الرَّاءُ وَالدَّالُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ

(١)أخرجه: البخاري/صحيحه(١٢٨)(١/٣٧)، مسلم/صحيحه(٣٢)(١/٦١).

مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عَلَى اتِّبَاعِ الشَّيْءِ. فَالتَّرَادُفُ: التَّتَابُعُ. وَالرَّدِيفُ: الَّذِي يُرَادِفُكَ[1].

وَرَدِيفٌ: بِمَعْنَى رَادِفٌ، وَهُوَ الرَّاكِبُ الَّذِي تَجْعَلُهُ خَلْفَكَ عَلَى الدَّابَّةِ، وَالْحِمَارُ فِي الْحَدِيثِ هُوَ الْأَهْلِيُّ.

وَقَوْلُ مُعَاذٍ ﷺ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى تَوَاضُعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعُلُوِّ مَكَانَةِ مُعَاذٍ ﷺ عِنْدَهُ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: **(أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟)** اسْتِفْهَامٌ بِغَرَضِ إِثَارَةِ الِانْتِبَاهِ، وَحُضُورِ الْقَلْبِ لِمَا يُلْقَى عَلَى السَّامِعِ، وَحَقُّ اللهِ: هُوَ مَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَكْلِيفٍ يَنْفَعُهُمْ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهِمْ مَصَالِحَهُمْ، وَأَجَلُّهُ الْعِبَادَةُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **(وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟)** أَيْ: وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ فِي الْجَزَاءِ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ تَفَضُّلًا وَتَكَرُّمًا، لَا اسْتِحْقَاقًا لَهُمْ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، يُبَيِّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الْأَنْعَامُ: ٥٤]، فَأَوْجَبَ سُبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَرْحَمَ مَنْ عَمِلَ سُوءًا بِجَهَالَةٍ وَسُوءِ تَصَرُّفٍ، ثُمَّ تَابَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحَ؛ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْغَفْرِ وَالسَّتْرِ لِلتَّائِبِ الْمُصْلِحِ، ظَاهِرُ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَوْنُ الْمُطِيعِ يَسْتَحِقُّ الْجَزَاءَ هُوَ اسْتِحْقَاقُ إِنْعَامٍ وَفَضْلٍ، لَيْسَ هُوَ اسْتِحْقَاقَ مُقَابَلَةٍ كَمَا يَسْتَحِقُّ الْمَخْلُوقُ عَلَى الْمَخْلُوقِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ لَا مَعْنَى لِلِاسْتِحْقَاقِ إِلَّا أَنَّهُ أَخْبَرَ بِذَلِكَ. وَوَعْدُهُ صِدْقٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يُثْبِتُونَ اسْتِحْقَاقًا زَائِدًا عَلَى هَذَا كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الرُّومُ: ٤٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذٍ ﷺ: **(أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ)** لَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَقُولُونَ هُوَ الَّذِي كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ وَأَوْجَبَ هَذَا الْحَقَّ عَلَى نَفْسِهِ لَمْ يُوجِبْهُ مَخْلُوقٌ[2].

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)** فِيهِ حُسْنُ أَدَبِ مُعَاذٍ ﷺ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الطَّالِبُ.

---

(١) ابن فارس/مقاييس اللغة(٢/ ٥٠٣).

(٢) ابن مفلح/الآداب الشرعية(١/ ١١٩)، وعزاه لابن تيمية.

وَفِيهِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمَسْؤُولُ عَمَّا يَجْهَلُ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ، وَرَدِّ الْأَمْرِ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ عِنْدَ الْعَجْزِ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: **(أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)** بَيَانٌ لِحَقِّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَهُوَ إِفْرَادُهُ فِي الْعِبَادَةِ الَّتِي شَرَعَ فِي كِتَابِهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَتَجْرِيدُهَا مِنَ الشِّرْكَةِ وَالشَّرِيكِ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: **(وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)** أَيْ: وَجَزَاءُ الْعِبَادِ عَلَى إِخْلَاصِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ، وَتَجْرِيدِ عِبَادَاتِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ كُلِّهِ؛ أَنْ يُؤَمِّنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

وَيَدُلُّ بِلَازِمِهِ أَنْ يُكْرِمَهُمْ تَفَضُّلاً بِدُخُولِ الْجَنَّةِ بِأَمْنٍ وَأَمَانٍ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: اقْتَصَرَ عَلَى نَفْيِ الْإِشْرَاكِ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَدْعِي التَّوْحِيدَ بِالِاقْتِضَاءِ وَيَسْتَدْعِي إِثْبَاتَ الرِّسَالَةِ بِاللُّزُومِ إِذْ مَنْ كَذَّبَ رَسُولَ اللهِ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهَ، وَمَنْ كَذَّبَ اللَّهَ فَهُوَ مُشْرِكٌ[1].

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟)** فِيهِ اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ طَهَارَةِ الْقَلْبِ، وَصَفَاءِ السَّرِيرَةِ، وَجَمِيلِ الْخُلُقِ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ)**[2].

الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: **(لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا)** نَهَاهُ عَنِ التَّبْشِيرِ، وَذَكَرَ لَهُ عِلَّةَ النَّهْيِ، أَيْ: لِئَلَّا يَعْتَمِدَ النَّاسُ عَلَى الْبِشَارَةِ بِالْمَغْفِرَةِ؛ فَيَقْعُدُوا عَنِ الْعَمَلِ.

قَالَ ابْنُ مُفْلِحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُهَا إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ يَحْمِلُهُ جَهْلُهُ عَلَى سُوءِ الْأَدَبِ بِتَرْكِ الْخِدْمَةِ فِي الطَّاعَةِ، فَأَمَّا الْأَكْيَاسُ الَّذِينَ سَمِعُوا بِمِثْلِ هَذَا ازْدَادُوا فِي الطَّاعَةِ وَرَأَوْا أَنَّ زِيَادَةَ النِّعَمِ تَسْتَدْعِي زِيَادَةَ الطَّاعَةِ فَلَا وَجْهَ لِكِتْمَانِهَا عَنْهُمْ[3].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِنَّمَا خَشِيَ مُعَاذٌ مِنَ الْإِثْمِ الْمُرَتَّبِ عَلَى كِتْمَانِ الْعِلْمِ، وَكَأَنَّهُ فَهِمَ

---

(١) ابن حجر/ فتح الباري (١/ ٢٢٨).

(٢) حسن، أخرجه: الطبراني/المعجم الأوسط(٦٠٢٦)(٦/ ١٣٩).

(٣)ابن مفلح/الآداب الشرعية(١/ ١٢٠) وعزاه لابن هبيرة.

مِنْ مَنْعِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخْبِرَ بِهَا إِخْبَارًا عَامًّا؛ لِقَوْلِهِ: (أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ)، فَأَخَذَ هُوَ أَوَّلًا بِعُمُومِ الْمَنْعِ فَلَمْ يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا، ثُمَّ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ الْمَنْعَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْإِخْبَارِ عُمُومًا، فَبَادَرَ قَبْلَ مَوْتِهِ فَأَخْبَرَ بِهَا خَاصًّا مِنَ النَّاسِ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْحُكْمَيْنِ، وَيُقَوِّي ذَلِكَ أَنَّ الْمَنْعَ لَوْ كَانَ عَلَى عُمُومِهِ فِي الْأَشْخَاصِ لَمَا أَخْبَرَ هُوَ بِذَلِكَ، وَأُخِذَ مِنْهُ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ مَقَامِهِ فِي الْفَهْمِ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ إِخْبَارِهِ[1].

تَعَلُّمُ التَّوْحِيدِ:

تَعَلُّمُهُ آكَدُ الْفَرَائِضِ، فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُكَلَّفِينَ أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ، لَا يَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُم، بَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِأَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الْأَنْبِيَاءُ: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[مُحَمَّدُ: ١٩]، أَيْ: وَجَبَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَمَنْ بَعْدَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَعْرِفَ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ.. أَرْكَانَهَا، وَشُرُوطَهَا كَمَعْرِفَتِكَ بِالشَّيْءِ الَّذِي تُدْرِكُهُ بِإِحْدَى حَوَاسِّكَ.

وَلَا يُعَدُّ الْعَبْدُ مُسْلِماً، وَلَا يُقْبَلُ لَهُ عَمَلٌ، وَلَا يُعْصَمُ دَمُهُ؛ حَتَّى يُصَدِّقَ بِتَوْحِيدِ اللهِ، وَيُقِرَّ بِهِ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**)[2]؛ فَجَعَلَ الْإِقْرَارَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهَا مِنْ فَرَائِضِ الْعِبَادَاتِ عِصْمَةً لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ.

مَرَاتِبُ تَعَلُّمِ التَّوْحِيدِ:

تَعَلُّمُ التَّوْحِيدِ يَقَعُ عَلَى مَرْتَبَتَيْنِ:

الْأُولَى: أَنَّ تَعَلُّمَهُ فَرْضُ عَيْنٍ، وَيَصْدُقُ عَلَى تَعَلُّمِ أُصُولِ التَّوْحِيدِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللهِ،

---

(١)ابن حجر/فتح الباري(١/ ٢٢٨).

(٢)ابن عجيبة/البحر المديد(٣/ ١٩٢).

وَأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [مُحَمَّدُ: ١٩].

وَهُوَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ جَمِيعُ الثَّقَلَيْنِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾ [الْحِجْرُ: ٩٢] قَالُوا: عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[1].

الثَّانِيَةُ: أَنَّ تَعَلُّمَهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ، وَيَصْدُقُ عَلَى مَا زَادَ عَلَى الْأُصُولِ مِنَ التَّفْصِيلِ وَالتَّدْلِيلِ وَالتَّعْلِيلِ، وَتَحْصِيلِ الْقُدْرَةِ عَلَى رَدِّ الشُّبُهَاتِ، وَقَوَادِحِ الْأَدِلَّةِ، وَإِلْزَامِ الْمُعَانِدِينَ، وَإِفْحَامِ الْمُخَالِفِينَ، وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِالْإِيمَانِ التَّفْصِيلِيِّ، وَهُوَ الْمَقْدُورُ عَلَى إِثْبَاتِهِ بِالْأَدِلَّةِ، وَحَلِّ وَدَفْعِ الشُّبَهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ فِي عُلُومِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ يَنْفِي تَأْوِيلَ الْمُبْطِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْغَالِينَ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُوَ الزَّمَانُ مِمَّنْ يَقُومُ بِهَذَا الفَرْضِ الكِفَائِيِّ الْمُهِمِّ، إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ حِفْظَ عَقَائِدِ النَّاسِ أَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً مِنْ حِفْظِ أَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ[2].

طَرِيقُ مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ:

يُعْلَمُ التَّوْحِيدُ بِأُمُورٍ جَمَعَهَا الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ:

أَحَدُهَا بَلْ أَعْظَمُهَا: تَدَبُّرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَمَالِهِ؛ فَإِنَّهَا تُوجِبُ عَلَى الْعَبْدِ التَّأَلُّهَ الْمُطْلَقَ للهِ، وَالتَّعَبُّدَ الْكَامِلَ الْمُقْتَضِي كَمَالَ الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ، وَالْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ وَالْجَمَالِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الْحَشْرُ: ٢٢-٢٤].

الثَّانِي: الْعِلْمُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، فَاقْتَضَى تَفَرُّدَهُ بِالْأُلُوهِيَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطُّورُ: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فَاطِرُ: ٣].

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(١/١٤).

(٢) محمد يسري/علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة(ص١٦٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**)[(١)].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ: (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الْكَرِيمِ**)[(٢)].

فَقَدْ دَلَّ الْحَدِيثَانِ: أَنَّ اللهَ هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ بِكَمَالِ الْحُبِّ، وَكَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَمَنْ سِوَاهُ فَمَعْبُودٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ الْمُتَفَرِّدُ فِي الْمُلْكِ، وَالْحَمْدِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْكَمَالِ وَالتَّمَامِ، وَهُوَ الْمُتَفَرِّدُ فِي خَلْقِ، وَمُلْكِ، وَحِفْظِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْعَرْشِ.

الثَّالِثُ: الْعِلْمُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ تَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِهِ وَمَحَبَّتَهُ، وَالتَّأَلُّهَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النَّحْلُ: ٥٣- ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لُقْمَانُ: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ [النَّحْلُ: ١٨].

الرَّابِعُ: مُشَاهَدَةُ مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ الْقَائِمِينَ بِتَوْحِيدِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالتَّمْكِينِ وَالْإِنْعَامِ الظَّاهِرِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَمِنَ الْخِذْلَانِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَضَرْبِهِمْ بِالذِّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ، فَإِنَّ مُشَاهَدَةَ هَذِهِ السُّنَنِ فِي الْوَاقِعِ تُثِيرُ الرَّغْبَةَ نَحْوَ تَوْحِيدِ اللهِ، وَالْحَذَرَ مِمَّا يُنَاهِضُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ كُلِّهَا، وَالاجْتِهَادَ فِي الْعِبَادَةِ الصَّالِحَةِ الْخَالِصَةِ للهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ [غَافِرُ: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ**

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٢٩٣)(٤/١٢٦)، مسلم/صحيحه(٢٦٩١)(٤/٢٠٧١).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٣٤٥)(٨/٧٥)، مسلم/صحيحه(٢٧٣٠)(٤/٢٠٩٢).

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النُّورُ:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحَجُّ: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٧٢].

الْخَامِسُ: الْعِلْمُ بِالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللهِ، وَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَقِيرَةٌ بِالذَّاتِ، لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا وَلَا لِمَنْ يَعْبُدُهَا نَفْعاً وَلَا ضَرّاً؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِحَقِيقَةِ الْأَوْثَانِ، وَأَنَّهَا آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهَا عَاجِزَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ مُسْعِفٌ فِي تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الْفُرْقَانُ: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الْحَجُّ: ٧٣ – ٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فَاطِرُ: ١٣– ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الْأَحْقَافُ: ٥– ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مَرْيَمُ: ٨١ – ٨٢].

السَّادِسُ: اتِّفَاقُ كُتُبِ اللهِ عَلَى ذَلِكَ، وَتَوَاطُؤُهَا عَلَيْهِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشُّورَى: ١٣].

قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ يَعْنِي التَّوْحِيدَ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الْأَحْزَابُ: ٧].

قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ يا محمد وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَهُمْ فِي الْمِيثَاقِ وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خَلَقَ آدَمَ عليه السلام وَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ، فَأَخَذَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَأَنْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ- عَزَّ وَجَلَّ- وَأَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا «وَأَنْ يَنْصَحُوا لِقَوْمِهِمْ» فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَدَّقَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَمَنْ كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ-عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ)[3].

السَّابِعُ: أَنَّ خَوَاصَّ الْخَلْقِ، الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ الْخَلِيقَةِ أَخْلَاقاً وَعُقُولاً وَرَأْياً وَصَوَاباً، وَعِلْماً -وَهُمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ- قَدْ شَهِدُوا للهِ بِذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٦٢].

الثَّامِنُ: مَا أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِنَا؛ فَإِنَّهَا تُنَادِي عَلَيْهِ بِلِسَانِ حَالِهَا بِمَا

---

(١) مقاتل/تفسيره(٣/٧٦٥).

(٢) مقاتل/تفسيره(٣/٤٧٥).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٤٤٢)(٤/١٦٧)، مسلم/صحيحه(٢٣٦٥)(٤/١٨٣٧).

أَوْدَعَهَا الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ صَنْعَتَهُ، وَبَدِيعَ حِكْمَتِهِ، وَغَرَائِبَ خَلْقِهِ عَلَى تَفَرُّدِهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الْحَجُّ: ٦١- ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النَّمْلُ: ٢٥- ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٦٣-١٦٤].

فَهَذِهِ الطُّرُقُ الَّتِي أَكْثَرَ اللهُ مِنْ دَعْوَةِ الْخَلْقِ بِهَا إِلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَبْدَاهَا فِي كِتَابِهِ وَأَعَادَهَا عِنْدَ تَأَمُّلِ الْعَبْدِ فِي بَعْضِهَا، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ يَقِينٌ وَعِلْمٌ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ وَتَوَاطَأَتْ وَاتَّفَقَتْ، وَقَامَتْ أَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَهُنَاكَ يَرْسَخُ الْإِيمَانُ وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، بِحَيْثُ يَكُونُ كَالْجِبَالِ الرَّوَاسِي، لَا تُزَلْزِلُهُ الشُّبَهُ وَالْخَيَالَاتُ، وَلَا يَزْدَادُ -عَلَى تَكَرُّرِ الْبَاطِلِ وَالشُّبَهِ- إِلَّا نُمُوّاً وَكَمَالاً.

هَذَا، وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى الدَّلِيلِ الْعَظِيمِ، وَالْأَمْرِ الْكَبِيرِ -وَهُوَ تَدَبُّرُ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالتَّأَمُّلِ فِي آيَاتِهِ- فَإِنَّهُ الْبَابُ الْأَعْظَمُ إِلَى الْعِلْمِ بِالتَّوْحِيدِ وَيَحْصُلُ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِهِ وَجُمَلِهِ مَا لَا يَحْصُلُ فِي غَيْرِهِ"[1].

فَضْلُ التَّوْحِيدِ:

أَوَّلاً: التَّوْحِيدُ سَبِيلُ الْأَمْنِ وَالْهُدَى:

عُلِمَ مِنْ دَلِيلِ الْوَحْيِ أَنَّ مُجَاهَدَةَ النَّفْسِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَتَحْقِيقَ الْإِخْلَاصِ مِنْ أَسْبَابِ

---

(١) السعدي/تفسيره(١/٧٨٧) بتصرف.

الهِدَايَةِ وَالْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ أَفْضَلَ مَا يُطَاعُ اللهُ بِهِ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ؛ إِذْ بِهِ يَحْصُلُ الْأَمْنُ وَالْهِدَايَةُ التَّامَّيْنِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الْأَنْعَامُ: ٨٣].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيُّنَا الَّذِي لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: (إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لُقْمَانُ: ١٣] إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ)(١).

وَلَا يَحْصُلُ الْأَمْنُ وَالْهُدَى الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي الْآيَةِ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ، وَأَقَامَ التَّوْحِيدَ مُجَرَّدًا عَنِ الشِّرْكِ، وَلَمْ يُوهِنْهُ بِالْمَعَاصِي، وَهَذَا لَا يَنْفِي أَنْ يُؤَاخَذَ الْمُؤْمِنُ عَلَى ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ أَوْ ظُلْمِهِ لِغَيْرِهِ إِذَا مَاتَ مُصِرًّا عَلَى ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزَّلْزَلَةُ: ٨-٩].

وَلَقَدْ أَرِقَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُؤَاخِذُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ دَقِيقَةً كَالذَّرِّ، إِذْ لَا مَنَاصَ لِأَحَدٍ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مُوَاقَعَةِ الْإِثْمِ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنَ الْعَذَابِ أَحَدٌ، فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[النِّسَاءُ: ١٢٣]، فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَا جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟) قَالَ: بَلَى. قَالَ: (فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ)(٢).

فَتَبَيَّنَ بِالحَدِيثِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ المُوجِبَةَ لِلعَذَابِ بِأَنْوَاعِ الابْتِلاءِ مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا، وَيَتَأَيَّدُ هَذَا بِأَدِلَّةٍ مِنَ السَّمْعِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[الْبَقَرَةُ: ١٥٥-١٥٧].

---

(١) أخرجه البخاري/صحيحه(٣٤٢٩)(٤/١٦٣)، مسلم/صحيحه(١٢٤)(١/١١٤).

(٢) صحيح بمجموع طرقه، أخرجه أحمد/مسنده(٦٨)(١/٢٢٩).

وَمِنْهَا حَدِيثُ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **(إِذَا أَرَادَ الله بعبدِهِ الخَيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنيا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يوم القِيَامَةِ)**(١).

وَعَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)**(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(مَا يَزَالُ البَلاءُ بالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نفسِهِ وولَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ)**(٣).

عَلَى أَنَّ الْأَمْنَ وَالْهِدَايَةَ مُرْتَبِطَانِ بِالْإِيمَانِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الظُّلْمِ، فَمَنْ سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ، وَظُلْمِ النَّفْسِ، وَالْغَيْرِ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَمْنِ وَالْهُدَى الْحَظُّ التَّامُّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ ذَلِكَ وَقَارَفَ مِنْهُ شَيْئًا، نَقَصَ لَهُ مِنَ الْأَمْنِ وَالْهُدَى بِقَدْرِ شِرْكِهِ وَظُلْمِهِ، فَمُقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ.

ثَانِيَاً: التَّوْحِيدُ سَبَبُ حُبِّ اللهِ لِعَبْدِهِ:

قَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ أَنَّ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْهُدَى سَبَبُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ، وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ أَحَبَّ الْقُرْبَةِ إِلَى اللهِ الْفَرِيضَةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَجَلَّ الْفَرَائِضِ وَأَفْضَلَهَا التَّوْحِيدُ، فَمَنْ حَقَّقَهُ أَحَبَّهُ اللهُ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، ...**﴾ [سُورَةُ الإِخْلاَصِ]، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **(سَلُوهُ لأَىِّ شَىْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ)**. فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ)**(٤).

قَوْلُهُ: **(أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ)** أَيْ: بَشِّرُوهُ بِحُبِّ اللهِ لَهُ، وَهُوَ أَعْظَمُ المِنَنِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدَهُ أَنْقَذَهُ مِنَ الْأَغْيَارِ، وَعَافَاهُ مِنْ فِتْنَةِ الْأَشْرَارِ، وَشَغَلَهُ بِطَاعَتِهِ؛ وَأَعْطَاهُ أُذُنًا لَا تَسْمَعُ إِلَّا الْحَقَّ، وَعَيْنًا لَا تُبْصِرُ إِلَّا الْحَقَّ، وَيَدًا لَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَرِجْلاً لَا تَسْعَى إِلَّا بِالْحَقِّ، وَزَادَهُ فَوْقَ ذَلِكَ بِرّاً وَفَضْلاً، فَيَجْعَلُهُ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، إِذَا سَأَلَ الله مِمَا يُحِبُّ أَجَابَهُ، وَإِذَا

---

(١) حسن صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٣٩٦)(٤/٦٠١).

(٢) حسن صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٣٩٨)(٤/٦٠١).

(٣) حسن صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٣٩٩)(٤/٦٠٢).

(٤) أخرجه: البخاري/صحيحه(٧٣٧٥)(٩/١١٥).

اسْتَعَاذَهُ مِمَّا يَكْرَهُ أَعَاذَهُ؛ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ: **(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ)**[1].

فَأَنْتَ تَرَى مِنْ بَيَانِ خَيْرِ الْوَرَى ﷺ أَنَّ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، وَخَلَّصَهُ مِنَ الشِّرْكِ، وَجَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَحَذِرَ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ، وَمِنْ ظُلْمِهِ لِغَيْرِهِ بِأَلْوَانِ العَدَاوَاتِ، أَحَبَّهُ اللهُ تَعَالَى، وَإِذَا أَحَبَّهُ، شَغَلَهُ فِي الدُّنْيَا بِأَلْوَانِ الطَّاعَاتِ، وَمَتَّعَهُ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي الْجَنَّاتِ.

ثَالِثاً: التَّوْحِيدُ يَقُودُ إِلَى الْجَنَّةِ:

مَنْ تَحَرَّى التَّوْحِيدَ، وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي تَحْقِيقِهِ بَرِيئاً عَنِ الشِّرْكِ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَخُيِّرَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِهَا الثَّمَانِيَةِ شَاءَ دَخَلَ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، ...**﴾ [سُورَةُ الْإِخْلَاصِ] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(وَجَبَتْ)**، قُلْتُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: **(الْجَنَّةُ)**[2].

وَقَدْ أُعْطِيَ الْعَبْدُ هَذَا الْجَزَاءَ بِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِأَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ دَلِيلُ الْأُلُوهِيَّةِ الَّذِي يَعْنِي: أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ دَلِيلُ الرُّبُوبِيَّةِ، فَإِنَّ الصَّمَدَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ السُّؤْدُدَ وَالْكَمَالَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَتَصْمِدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ دَلِيلُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ؛ لِيُثْبِتَ لِنَفْسِهِ كَمَالَ الْوَحْدَانِيَّةِ: أَنَّهُ إِلَهٌ أَحَدٌ، أَوَّلٌ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَالِدٌ، وَآخِرٌ لَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ وَلَدٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ مَثَلٌ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبِلِ، مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الأَبَدِ.

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٥٠٢)(٨/١٠٥).

(٢) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٨٩٧)(٥/١٦٧).

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ)**[1].

فَالَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إِيمَاناً خَالِصاً مِنَ الشِّرْكِ، وَيُؤْمِنُ بِأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ لَهُ صِفَاتُ العَبْدِ مِنَ الضَّعْفِ، وَالْخُضُوعِ وَالتَّوَاضُعِ، وَسُرْعَةِ الانْقِيَادِ لِمَا يُكَلَّفُ بِهِ، وَأَنَّهُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَجُوعُ وَيَظْمَأُ، وَيَحْتَرُّ وَيَبْرُدُ، وَيَصِحُّ وَيَسْقَمُ، وَيَرِدُ عَلَيْهِ الْفَنَاءُ، وَلَمْ يُطْرِهِ، وَلَمْ يُعَظِّمْهُ فَوْقَ الْقَدْرِ الْمُقَرَّرِ فِي الشَّرْعِ، وَيُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اصْطَفَاهُ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَأَمَرَهُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

وَيَتَبَرَّأُ مِنَ البِدْعَةِ التِي جَنَحَتْ إِلَيْهَا النَّصَارَى، الَّذِينَ أَسْرَفُوا وَضَلُّوا وَكَفَرُوا، لَمَّا اعْتَقَدُوا بِأَنَّ المَسِيحَ ابْنُ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا قَالُوا عُلُوّاً كَبِيراً.

وَيُؤْمِنُ بِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ؛ أَقَامَهُ آيَةً دَالَّةً عَلَى كَمَالِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ، إِذْ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ، وَخَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَأُمٍّ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ؛ لِيَعْظُمَ إِيمَانُ النَّاسِ بِعِيسَى عليه السلام.

وَيُؤْمِنُ بِالْجَنَّةِ دَارًا لِلْمُتَّقِينَ، وَبِالنَّارِ دَارًا لِلْكَافِرِينَ، وَالْعُصَاةِ الْمُذْنِبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

إِذَا حَقَّقَ الْعَبْدُ كُلَّ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ غَفَرَ اللهُ ذَنْبَهُ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِهَا الثَّمَانِيَةِ شَاءَ.

رَابِعاً: التَّوْحِيدُ نَجَاةٌ مِنَ النَّارِ:

إِذَا حَقَّقَ الْعَبْدُ التَّوْحِيدَ، وَبَرِءَ مِنَ الشِّرْكِ، أَمَّنَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ مَعَ الْأَبْرَارِ؛ فَعَنْ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: **(يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟)**، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **(فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)**[2].

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٤٣٥)(٤/١٦٥).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٨٥٦)(٤/٢٩).

يُسْتَفَادُ مِنْهُ تَحْرِيمُ النَّارِ عَلَى أَهْلِ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ مِنَ الشِّرْكِ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**)[1].

وَأَرْجَحُ وُجُوهِ التَّأْوِيلِ عِنْدِي: أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ عَالِمًا مُصَدِّقًا، رَاجِيًا مُحِبًّا، وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُمْهَلَ لِلْعَمَلِ فَخُتِمَ لَهُ بِهَا، فَكَانَتْ حَسَنَةً وَزَنَتْ جَمِيعَ سَيِّئَاتِهِ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَصَدَقَ اللهُ الْقَائِلُ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾ [الْقَارِعَةُ: ٦-٧].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا**) فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: (**يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ**) ثَلَاثًا[2].

وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِمَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، وَبَرِأَ مِنَ الشِّرْكِ، وَإِلَّا فَمَنْ لَابَسَ تَوْحِيدَهُ شِرْكٌ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَمِنْ قَائِلٍ أَنَّهُ فِي الْمَشِيئَةِ وَهُمْ كَثِيرُونَ، وَمِنْ قَائِلٍ أَنَّهُ مُعَذَّبٌ بِقَدْرِ شِرْكِهِ ثُمَّ تَبْلُغُهُ الشَّفَاعَةُ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَبِهِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ**

---

(١) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٦٣٩)(٥/٢٤).

(٢) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/سننه(٤٠٤٩)(٢/١٣٤٤).

﴿يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النِّسَاءُ: ٤٨].

خَامِساً: التَّوْحِيدُ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ:

لَقَدْ جَاءَ دَلِيلُ الْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ كِتَاباً وَسُنَّةً أَنَّ الْحَسَنَةَ تَمْحُو السَّيِّئَةَ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْحَسَنَةُ أَعْظَمَ؛ كَانَ أَثَرُهَا فِي التَّكْفِيرِ أَشَدَّ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ حَسَنَةِ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[هُودُ: ١١٤].

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)[1].

فَمَنْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرَابِ الْأَرْضِ -أَيْ: مِلْؤُهَا أَوْ مَا يُقَارِبُ مِلْئَهَا - خَطَايَا، وَقَدْ حَقَّقَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ التَّوْحِيدَ، وَلَمْ يُسْرِفْ بَعْدُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمَعَاصِي؛ أَتَاهُ اللهُ بِمِلْءِ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً، وَإِذَا أَتَى بِالتَّوْحِيدِ وَأَسْرَفَ فِي الْمَعْصِيَةِ؛ فَهُوَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَخَذَهُ بِذُنُوبِهِ، وَلَا يُخَلَّدَ فِي النَّارِ، بَلْ يَخْرُجُ مِنْهَا، ثُمَّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُوَحِّدُ لَا يُلْقَى فِي النَّارِ كَمَا يُلْقَى الْكُفَّارُ، وَلَا يَلْقَى فِيهَا مَا يَلْقَى الْكُفَّارُ، وَلَا يَبْقَى فِيهَا كَمَا يَبْقَى الْكُفَّارُ، فَإِنْ كَمُلَ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ وَإِخْلَاصُهُ لِلَّهِ فِيهِ، وَقَامَ بِشُرُوطِهِ كُلِّهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، أَوْ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْجَبَ ذَلِكَ مَغْفِرَةَ مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، وَمَنَعَهُ مِنْ دُخُولِ النَّارِ بِالْكُلِّيَّةِ. فَمَنْ تَحَقَّقَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ قَلْبُهُ؛ أَخْرَجَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا وَمَهَابَةً، وَخَشْيَةً، وَرَجَاءً وَتَوَكُّلًا، وَحِينَئِذٍ تُحْرَقُ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ كُلُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَرُبَّمَا قَلَبَتْهَا حَسَنَاتٍ؛ فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ هُوَ الْإِكْسِيرُ الْأَعْظَمُ، فَلَوْ وُضِعَ مِنْهُ ذَرَّةٌ عَلَى جِبَالِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، لَقَلَبَهَا حَسَنَاتٍ[2].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: (لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَلَغَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى أُعْطِيَ ثَلَاثاً: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَخَوَاتِمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وغُفِرَ لِأُمَّتِهِ كُلُّ شَيْءٍ مَا لَمْ تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئاً

---

(١) صحيحه، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٥٤٠)(٥/٥٤٨).

(٢) انظر: ابن رجب/جامع العلوم والحكم(٢/٤١٦- ٤١٧).

الْمُقْحِمَاتِ)[1].

قَوْلُهُ: **(الْمُقْحِمَاتُ)** أَيْ: الذُّنُوبُ الْكَبِيرَةُ الْعِظَامُ الَّتِي تُهْلِكُ أَصْحَابَهَا، وَتُورِدُهُمُ النَّارَ، وَتُقْحِمُهُمْ إِيَّاهَا، وَالتَّقَحُّمُ الْوُقُوعُ فِي الْمَهَالِكِ، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: مَنْ مَاتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ غَيْرَ مُشْرِكٍ بِاللَّهِ؛ غُفِرَ لَهُ الْمُقْحِمَاتُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمُرَادُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِغُفْرَانِهَا: أَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ، بِخِلَافِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَصْلًا؛ فَقَدْ تَقَرَّرَتْ نُصُوصُ الشَّرْعِ وَإِجْمَاعُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ عَذَابِ بَعْضِ الْعُصَاةِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هذا العفوُ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَيْسَ لِجَمِيعِهِمْ، أَيْ: يَغْفِرُ اللهُ لِبَعْضِ الْأُمَّةِ بِتَوْحِيدِهِمْ رُغْمَ إِسْرَافِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَعْصِيَةِ الْمُقْحِمَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ[2].

سَادِسَاً: التَّوْحِيدُ تُسْتَجَابُ بِهِ الدَّعَوَاتُ:

خَيْرُ وَسِيلَةٍ وَأَعْجَلُهَا فِي قَبُولِ الدَّعْوَةِ، وَإِجَابَةِ الْمَسْأَلَةِ؛ تَوْحِيدُ اللهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَقَدْ جَاءَ دَلِيلُ الْوَحْيِ يَكْشِفُ أَنَّ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا سُئِلَ اللهُ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، لَمْ يَخْلُ مِنِ اسْمِ اللهِ أَوْ صِفَتِهِ مَعَ تَوْحِيدِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الْأَعْرَافُ: ١٨٠].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ)**[3].

قَوْلُهُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ)** أَيْ: يَا إِلَهِي الَّذِي أَعْبُدُهُ بِغَايَةِ الْحُبِّ، وَغَايَةِ الْخُضُوعِ، أَدْعُوكَ مُتَوَسِّلاً بِإِقْرَارِي مُعْتَقِداً أَنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ.

وَقَوْلُهُ: **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)** أَيْ: لَا إِلهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ بِأَشَدِّ الْحُبِّ مَعَ أَشَدِّ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ؛ لِأَنَّكَ الْمُتَفَرِّدُ دُونَ خَلْقِكَ بِكَمَالِ الْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ.

وَقَوْلُهُ: **(الْأَحَدُ)** هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، الَّذِي لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ، وَهُوَ

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٧٣)(١/١٥٧).

(٢) النووي/شرحه على مسلم(٣/٣) بتصرف.

(٣) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/سننه(٣٨٥٧)(٢/١٢٦٧).

الَّذي تَوَحَّدَ بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ، فَلَمْ يُشَارِكْهُ فِيهَا شَرِيكٌ، وَوَجبَ عَلَى الثَّقَلَيْنِ تَوْحِيدُهُ عَقْلاً وَقَوْلاً وَعَمَلاً، بِأَنْ يَعْتَرِفُوا بِكَمَالِهِ الْمُطْلَقِ، وَتَفَرُّدِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ[(١)]، وَالْأَحَدُ أَكْمَلُ مِنَ الْوَاحِدِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: فُلَانٌ لَمْ يُخَالِفْهُ وَاحِدٌ، جَازَ فِي الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ قَدْ خَالَفَهُ اثْنَانِ أَوْ أَكْثَرَ، بِخِلَافِ قَوْلِكَ: لَا يُخَالِفُهُ أَحَدٌ، فَإِنَّهُ نَفْيٌ لِلْمُخَالَفَةِ مِنْ أَيِّ فَرْدٍ أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ جَمَاعَةٍ.

وَقَوْلُهُ: (**الصَّمَدُ**) أَي: الْمَقْصُودُ الْكُلِّيُّ وَالْمَطْلُوبُ الْحَقِيقِيُّ[(٢)]، فَهُوَ الْمُتَضَمِّنُ لِجَمِيعِ أَوْصَافِ الكَمَالِ؛ فَإِنَّ الصَّمَدَ: الذي انتهى سُؤْدَدُهُ؛ بِحَيْثُ يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ كُلِّهَا؛ أَيْ: يُقْصَدُ، وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ تَحْقِيقًا إِلَّا مِمَّنْ حَازَ جَمِيعَ خِصَالِ الْكَمَالِ حَقِيقَةً، وَذَلِكَ لَا يَكْمُلُ إِلَّا للهِ ﷻ؛ فَهُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[(٣)].

قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصَّمَدُ: هُوَ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، وَيُقْصَدُ إِلَيْهِ فِي الرَّغَائِبِ، إِذْ يَنْتَهِي إِلَيْهِ مُنْتَهى السُّؤْدَدِ، وَمَنْ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى مَقْصِدَ عِبَادِهِ فِي مَهَمَّاتِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَجْرَى عَلَى يَدِهِ وَلِسَانِهِ حَوَائِجَ خَلْقِهِ فَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِحَظٍّ مِنْ مَعْنَى هَذَا الْوَصْفِ، لَكِنِ الصَّمَدُ الْمُطْلَقُ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْحَوَائِجِ وَهُوَ اللهُ ﷻ[(٤)].

وَالصَّمَدُ: الْمُصْمَتُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ[(٥)].

وَالصَّمَدُ: السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدَدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ عَظُمَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ، وَالْعَالِمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدَدِ[(٦)].

وَقَوْلُهُ: (**الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ**) لَمْ يَلِدْ، أَيْ: لَمْ يَصْدُرْ عَنْ ذَاتِهِ ذاتٌ مُشْتَقةٌ مِنْهُ، وَلَمْ يُولَدْ،

---

(١) النجدي/النهج الأسمى(ص٣٦٨).

(٢) القاري/مرقاة المفاتيح(٤/١٥٨٨).

(٣) ابن العطار/العدة في شرح العمدة(١/٥١٨).

(٤) الغزالي/المقصد الأسنى(ص١٣٤).

(٥) الطبري/تفسيره(٢٤/٧٣٦).

(٦) الطبري/تفسيره(٢٤/٧٣١).

فَلَمْ تَصْدُرْ ذَاتُهُ عَنْ ذَاتٍ أُخْرَى، فَهُوَ الأَوَّلُ الذِي لَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَالِدٌ كَانَ هُوَ مِنْهُ، وَهُوَ الآَخِرُ الذِي لَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ وَلَدٌ يَكُوْنُ مِنْهُ.

وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي العَرَبِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ المَلائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، وَعَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ عِيسَى ابْنُ اللهِ، وَعَلَى اليَهُودِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْعُزَيْزَ ابْنُ اللهِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِم عُلُواً كَبْيراً؟

وَقَوْلُهُ: **(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)** أَيْ: لم يكن مِثْلًا فِي ذَاتِهِ، وَشَبِيهًا فِي صِفَاتِهِ، وَنَظِيرًا فِي أَفْعَالِهِ أحدٌ[1].

وفِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى اسْمًا أَعْظَمَ إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ[2]، وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ.

وَيَحْسُنُ بِالْعَبْدِ أَنْ يَتَّخِذَهُ وَسِيلَةً يَسْتَشْفِعُ بِهَا فِي قَبُولِ دُعَائِهِ، وَإِجَابَةِ مَسْأَلَتِهِ.

وَفِيهِ أَنَّ بَعْضَ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى فِيهِ مِنَ السِّرِّ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَتْ أَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا عَظِيمَةً مُقَدَّسَةً، إِلَّا أَنَّ لِبَعْضِهَا تَأْثِيراً فِي قَضَاءِ الْحَاجَةِ، وَاسْتِجَابَةِ الدَّعْوَةِ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ، وَهَذَا لَا يُعْلَمُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ[3].

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى)**[4].

قَوْلُهُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ)** أَيْ: أَسْأَلُكَ يَا اللهُ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ مُتَوَجِّهًا إِلَيْكَ بِالثَّنَاءِ عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ[5].

---

(١) القاري/مرقاة المفاتيح(١٥٨٨/٤).

(٢) القاري/مرقاة المفاتيح(١٥٨٨/٤).

(٣) محمد بن آدم الأثيوبي/ذخيرة العقبى(٢٢١/١٥).

(٤) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(١٤٩٥)(٧٩/٢).

(٥) السبكي/المنهل العذب المورود(١٥٩/٨).

وَالسُّؤَالُ مَحْذُوفٌ لِإِرَادَةِ التَّعْمِيمِ[١]، أَوِ اكْتِفَاءً بِعِلْمِ الْمَسْؤُولِ[٢].

وَقَوْلُهُ: (**بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ**) اللَّامُ فِي (**لَكَ**) لِلِاخْتِصَاصِ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (**الْحَمْدُ**) تُؤْذِنُ بِالْكَمَالِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ صَاحِبُ الْمَحَامِدِ الْكَامِلَةِ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الْمَحْمُودُ حَمْدًا مُطْلَقًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، فِي الْأُلُوهِيَّةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَأَفْعَالِ الذَّاتِ.

وَقَوْلُهُ: (**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ**) أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا أَنْتَ؛ لِأَنَّكَ كَثِيرُ الْعَطَاءِ لِعِبَادِكَ، وَالْمَنَّانُ: مِنَ الْمِنَّةِ بِمَعْنَى النِّعْمَةِ، أَوِ النِّعْمَةِ الثَّقِيلَةِ.

وَقَوْلُهُ: (**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**) يَجُوزُ فِيهِ الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةُ الْمَنَّانِ أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هُوَ أَوْ أَنْتَ، وَهُوَ أَظْهَرُ. وَالنَّصْبُ عَلَى النِّدَاءِ، وَيُقَوِّيهِ رِوَايَةُ الْوَاحِدِيِّ فِي كِتَابِ الدُّعَاءِ لَهُ: (**يَا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ**) أَيْ: مُبْدِعُهُمَا، وَقِيلَ: بَدِيعُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَفِي الصِّحَاحِ: أَبْدَعْتُ الشَّيْءَ: اخْتَرَعْتَهُ لَا عَلَى مِثَالٍ سَبَقَ[٣].

وَفِي اللِّسَانِ: بَدِيعٌ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، مِثْلُ قَدِيرٍ بِمَعْنَى قَادِرٍ، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لأَنه بدأَ الْخَلْقَ عَلَى مَا أَراد عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ تَقَدَّمَهُ[٤].

قَوْلُهُ: (**يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**) أَيْ: يا صَاحِبَ الْعَظَمَةِ والهَيْبَةِ والسُّلْطَانِ وَالْمِنَّةِ وَالْإِحْسَانِ الَّذِي لَا يَتَنَاهَى[٥].

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيْ هُوَ أَهْلٌ لِأَنْ يُكْرَمَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الشِّرْكِ، كَمَا تَقُولُ: أَنَا أُكْرِمُكَ عَنْ هَذَا، وَمِنْهُ إِكْرَامُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ[٦].

وَقَوْلُهُ: (**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**) أَيْ: يَا دَائِمَ الْبَقَاءِ يَا مَنْ هُوَ قَائِمٌ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهٍ، فَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ أَبَدًا ﴿**سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ**

---

(١) محمد بن آدم الأثيوبي/ذخيرة العقبى(١٥/٢١٨).

(٢) العظيم آبادي/عون المعبود(٤/٢٥٤).

(٣) القاري/مرقاة المفاتيح(٤/١٥٨٨).

(٤) ابن منظور/لسان العرب(٨/٦).

(٥) القاري/مرقاة المفاتيح(٤/١٥٨٨)، السبكي/المنهل العذب المورود(٨/١٥٩).

(٦) القرطبي/تفسيره(١٥/٢١٩).

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرَّعْدُ: ١٠]؛ فَقَوَّمَ السَّمَاءَ وَبَسَطَ الْأَرْضَ وَجَمَّلَهَا، وَأَعْطَى كُلَّ مَخْلُوقٍ مَا قَسَمَ لَهُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ يَحْصُلُ لَهُ ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨][١].

قَوْلُهُ: **(لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى)** وَفِي رِوَايَةٍ: "الْأَعْظَمُ"[٢]، وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا سَبَقَ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ تَعَدُّدَ اسْمِهِ الْأَعْظَمِ[٣].

وَفِيهِ: أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ فِيهِ اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سَئِلَ بِهِ أَعْطَى[٤].

وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الثَّنَاءِ عَلَى اللهِ ﷻ فِي التَّشَهُّدِ قَبْلَ الدُّعَاءِ[٥]؛ فَإِنَّهُ أَكْمَلُ أَدَبًا مَعَ اللهِ، وَأَسْرَعُ فِي الْقَبُولِ عِنْدَهُ.

وَيَدُلُّ الْحَدِيثُ بِالْإِيمَاءِ أَنَّ التَّوْحِيدَ بِأَنْوَاعِهِ: الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ خَيْرُ وَسِيلَةٍ يُسْتَشْفَعُ بِهَا فِي قَبُولِ الدُّعَاءِ، وَإِجَابَةِ الْمَسْأَلَةِ.

وَفِيهِ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ فِي تَحْصِيلِ الرَّغَائِبِ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ، وَالدُّعَاءُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، فَقَوْلُهُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ)** إِقْرَارٌ بِأَنَّ اللهَ صَاحِبُ الْحَمْدِ الْمُطْلَقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَقَوْلُهُ: **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ)** اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُ لَا أَحَدَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤْلَهَ بِغَايَةِ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْمِنَنِ وَالنِّعَمِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَقَوْلُهُ: **(يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ)** تَوَسُّلٌ بِأَسْمَائِهِ، وَهِيَ ذَاتُ عَلَاقَةٍ وَأَثَرٍ فِي دَفْعِ الْمَرْهُوبِ، وَجَلْبِ الْمَحْبُوبِ، فَإِنَّ اللهَ ذُو الْجَبَرُوتِ وَالْعَظَمَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْغَلَبَةِ؛ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَذُو الْإِحْسَانِ وَالْمِنَّةِ بِالْخُيُورِ وَالنِّعَمِ، وَذُو الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا،

---

(١) السبكي/المنهل العذب المورود(٨/١٥٩).

(٢)محمد بن آدم الأثيوبي/ذخيرة العقبى(١٥/٢٢٠).

(٣) الصنعاني/التحبير لإيضاح معاني التيسير(٤/٥٤).

(٤)محمد بن آدم الأثيوبي/ذخيرة العقبى(١٥/٢٢٠).

(٥) ابن رجب/فتح الباري(٧/٣٤٩).

وَالْقَيُّومِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ** ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٦٣]، **وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:** ﴿**الم، اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾[آلُ عِمْرَانَ: ١-٢])[١] .

قَوْلُهُ: (**اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ**) أَيْ: حَاضِرٌ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ.

وَالسِّرُّ فِي طَيِّهِ وَعَدمِ تَعْيِينِهِ: أَنْ يَجْتَهِدَ العَبْدُ فِي الكُلِّ لِيُوَافِقَهُ، فَطَيُّهُ فِي هَذِهِ الأَلْفَاظِ كَطَيِّ لَيْلَةِ القَدْرِ وَسَاعَةِ الجُمُعَةِ فِي الأوقات[٢] .

قَوْلُهُ: ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ أَيْ: المَعْبُوْدُ الحَقُّ الذِيْ تَأْلَهُهُ القُلُوبُ بِغَايَةِ الحُبِّ وَغَايَةِ الخُضُوعِ وَالذُّلِّ، إِلهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ.

وَقَوْلُهُ: (**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**) تَقْرِيرٌ لِلْوَحْدَانِيَّةِ فِي العِبَادَةِ للهِ، قَوْلُهُ: ﴿**الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾ أَيْ: رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا، ذُو الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ الْمُنْعِمُ بِجَلَائِلِ النِّعَمِ وَدَقَائِقِهَا، وَهُوَ كَالْحُجَّةِ عَلَى تَفْرِيدِهِ فِي حَقِّ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مَوْلَى النِّعَمِ كُلِّهَا أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا، وَمَا سِوَاهُ إِمَّا نِعْمَةٌ أَوْ مُنْعَمٌ عَلَيْهِ؛ لَمْ يَسْتَحِقَّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ غَيْرُهُ[٣] .

وَقَوْلُهُ: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ**﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللهُ الْحَيُّ ذُو الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ الْأَبَدِيَّةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، ﴿**الْقَيُّومُ**﴾ الَّذِي بِهِ قِيَامُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ[٤] .

قَالَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُٱللَّهُ فِي الْجَوَاهِرِ: وَهَذَا الخَبَرُ يَشْهَدُ بِأَنَّ الاسْمَ الأَعْظَمَ هُوَ الحَيُّ القَيُّوْمُ وَتَحْتَهُ سِرٌّ مَكْنُونٌ.

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ: الاسْمُ الأَعْظَمُ فِي آيَةِ الكُرْسِيِّ وَأَوَّلِ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَجَاءَ فِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي القُرْآنِ ﴿**اللهُ لا إِلَهَ إِلَا هُوَ**﴾[٥] .

---

(١) حسن، أخرجه: أبو داود/سننه(١٤٩٦)(٢/٨٠).

(٢) الصنعاني/التنوير شرح الجامع الصغير(٢/٣٦٧).

(٣) المناوي/فيض القدير(١/٥١٠)، المباركفوري/مرعاة المفاتيح(٧/٤٣٩).

(٤) المناوي/فيض القدير(١/٥١٠).

(٥) المناوي/فيض القدير(١/٥١٠).

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَذَلِكَ لِأَنَّ شَرَفَ الآيَاتِ بِشَرَفِ مَدْلُوْلَاتِهَا وَرِفْعَةِ قَدْرِهَا، وَاشْتِمَالِهَا على الفَوَائِدِ العَظِيمَةِ وَالعَوَائِدِ الخَطِيرَةِ، ثُمَّ بِحُسْنِ النَّظْمِ وَمَزِيدِ البَيَانِ وَالفَصَاحَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَعْظَمَ المَدْلُوْلَاتِ ذَاتُ اللهِ تعالى وَصِفَاتُهُ، وَأَشْرَفُ العُلُومِ وَأَعْلَاهَا قَدْرًا وَأَبْقَاهَا ذُخْرًا: هُوَ العِلْمُ الإِلَهِيُّ البَاحِثُ عَنْ ذَاتِهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ السَّلْبِيَّةِ وَالثُّبُوتِيَّةِ، وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا مِنْ صَنَائِعِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَنَّ رُجُوعَ الخَلْقِ إِلَيْهِ وَحِسَابَهُم عِنْدَهُ، لَا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مَانِعَ مِنْ عَذَابِهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْ مَفْهُومِهَا وَفَحْوَاهَا: تَشْتَمِلُ عَلَى جُمْلَةِ ذَلِكَ مُفَصَّلاً أَوْ مُجْمَلاً، عَلَى طَرِيْقَةِ التَّقْرِيرِ وَالتَّحْقِيْقِ لَا عَلَى سَبِيلِ الدَّعْوى وَمَحْضِ التَّقْلِيدِ.

وَمِنْ حَيْثُ إِنَّ اللفْظَ وَقَعَ فِي مَجَازِ البَلَاغَةِ وَحُسْنِ النَّظْمِ وَالتَّرْتِيبِ مَوْقِعًا تَنْمَحِقُ دُوْنَهُ بَلاغَةُ كُلِّ بَلِيغٍ، وَتَتَعْتَعُ فِي مُعَارَضَتِهِ فَصَاحَةُ كُلِّ فَصِيحٍ[1].

وَقَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي لَوَامِعِ الْبَيِّنَاتِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الاسْمُ الْأَعْظَمُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ طَلَبَ مِنَ الْمُصْطَفَى ﷺ أَنْ يُعَلِّمَهُ الاسْمَ الْأَعْظَمَ، فَقَالَ هُوَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٥٥]، وَفِي: ﴿**الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [آلُ عِمْرَانَ:٢] قَالُوا: وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي قَوْلِنَا: اللهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مَوْجُودَةٌ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَلَمَّا خُصَّ الاسْمُ الْأَعْظَمُ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ؛ عَلِمْنَا أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

الثَّانِي: أَنَّ الْحَيَّ مَلْزُومُ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، فَمَا مِنْ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ إِلَّا اسْتَلْزَمَ أَنْ يَكُونَ حَيًّا، وَلِهَذَا فَإِنَّ اسْمَهُ الْحَيَّ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ عَالِمًا مُتَكَلِّماً قَادِرًا سَمِيعًا بَصِيرًا، وَالْقَيُّومُ مُسْتَلْزِمٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ كَمَالِهِ؛ لِكَوْنِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ مُقَوِّمٌ لِغَيْرِهِ، وَمِنْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ تَتَشَعَّبُ جَمِيعُ الْمَسَائِلِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ، فَفِي هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ مِنْ صِفَاتِ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْإِلَهِيَّةِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِمَا، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُمَا أَعْظَمُ الْأَسْمَاءِ.

وَقَالَ الْجَزَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْحِصْنِ: وَعِنْدِي إِنَّهُ اللهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ جَمْعاً بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ، وَبَيَانُهُ: إِنَّ حَدِيثَ أَسْمَاءَ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَحَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ،

---

(١) البيضاوي/تحفة الأبرار(١/٥٢٥).

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه**)(1).

أَمَّا الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا طَهَ فَفِيهَا أَوَّلاً: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [طه: ٨] وَآخِراً ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**﴾ [طه: ١١١]. قَالَ الْحَنَفِيُّ: فِيهِ نَظَرٌ؛ لِجَوَازِ كَوْنِ الاسْمِ الْأَعْظَمِ الْمَأْخُوذِ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ، قَالَ الْقَارِي: الْأَظْهَرُ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ أَنْ يُقَالَ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لِيَكُونَ مُشْتَمِلاً عَلَى جَمِيعِ مَا ذَكَرَهُ فِي السُّوَرِ، وَكَأَنَّ الْجَزَرِيَّ نَظَرَ إِلَى أَنَّ الْمَوْجُودَ فِي جَمِيعِهَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

وَقَالَ الْمُبَارَكْفُورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي مَا قَالَهُ الْجَزَرِيُّ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ رِوَايَةِ أَحْمَدَ، وَتَقَدَّمَ عَنِ السِّنْدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: الْمُرَادُ بِهِ: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾، واللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ(2).

وَيُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ لِإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَقَضَاءِ الرَّغْبَةِ، بَدْءُ الدُّعَاءِ بِالْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

سَابِعاً: التَّوْحِيدُ تُفَرَّجُ بِهِ الْكُرُبَاتُ:

لَقَدْ جَاءَ دَلِيلُ الْوَحْيِ مُرْشِدَاً أَنَّ التَّوَسُّلَ بِالتَّوْحِيدِ فِي تَفْرِيجِ الْكَرْبِ، وَكَشْفِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ لَا يَكَادُ يُخْطِئُ غَرَضَهُ؛ فَعَنْ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ**)(3).

قَوْلُهُ: (**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ**) أَيْ: دَعْوَةُ صَاحِبِ الْحُوتِ، وَهُوَ سَيِّدُنَا يُونُسُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَإِنَّ النُّونَ هُوَ الْحُوتُ، وَقَدْ سُمِّيَ يُونُسُ بِذِي النُّونِ؛ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[الْأَنْبِيَاءُ: ٨٧].

وَقَوْلُهُ: (**إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ**) أَيْ: دَعَا اللهَ وَسَبَّحَهُ وَمَجَّدَهُ فِي حَالِ الضِّيقِ وَالاضطِّرَارِ غَيْرَ آيِسٍ وَلَا قَانِطٍ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى**

---

(١) صحيح، أخرجه: الطبراني/المعجم الكبير(٧٧٥٨)(٨/١٨٣).

(٢) المباركفوري/مرعاة المفاتيح(٧/٤٤٠).

(٣) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٥٠٥)(٥/٥٢٩).

الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصَّافَّاتُ: ١٣٩- ١٤٤].

وَقَوْلُهُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) أَيْ: لَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ بِغَايَةِ الْحُبِّ وَغَايَةِ الذُّلِّ إِلَّا أَنْتَ (سُبْحَانَكَ) أَيْ: أُنَزِّهُكَ تَنْزِيهًا عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، وَعَنْ كُلِّ نِدٍّ وَشَرِيكٍ (إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) أَيْ: أُقِرُّ مُؤَكِّدًا، وَأَعْتَرِفُ صَادِقًا بِالْعَجْزِ عَنْ أَدَاءِ حَقِّ الإِلَهِيَّةِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِكَ، وَلَقَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي بِعَدَمِ الصَّبْرِ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْكَ.

وَقَوْلُهُ: (فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ) ذَكَرَ الرَّجُلَ؛ لِشَرَفِ الذُّكُورِيَّةِ، وَإِلَّا فَالْخِطَابُ يَشْمَلُ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ، وَقَوْلُهُ: (فِي شَيْءٍ قَطُّ) نَكِرَةٌ سُبِقَتْ بِنَفْيٍ، فَشَمِلَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَا خَلَا الْإِثْمَ وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ.

وَقَوْلُهُ: (إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ) يُؤْذِنُ بِالْقَطْعِ فِي الْإِجَابَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا دَعْوَةٌ مِنْ عَبْدٍ مُضْطَرٍّ أَصَابَهُ الْعَجْزُ وَالضَّعْفُ وَالذُّلُّ، وَتَمَلَّكَهُ التَّجَرُّدُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَأَعْلَنَ ضُرَّهُ وَمَسْكَنَتَهُ، وَتَوَسُّلَهُ بِالتَّوْحِيدِ مُعْتَرِفاً بِالتَّقْصِيرِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَى الْمَدْعُوِّينَ، وَالنَّدَمِ عَلَى ذَلِكَ، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الْأَنْبِيَاءُ: ٨٨][١]، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي مِثْلِ هَذَا ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النَّمْلُ: ٦٢][٢].

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا ذِكْرٌ لَا دُعَاءٌ. **قُلْنَا:** هُوَ ذِكْرٌ يُسْتَفْتَحُ بِهِ الدُّعَاءُ ثُمَّ يَدْعُو بِمَا شَاءَ أَوْ هُوَ كَمَا وَرَدَ: (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ)[٣][٤].

وَعَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ بِي كَرْبٌ أَنْ أَقُولَ: (لَا إِلَهَ إِلا اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللهِ، وَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[٥].

---

(١) القاري/مرقاة المفاتيح(٤/١٥٩٠).

(٢) المناوي/فيض القدير(٣/٥٢٦).

(٣) حسن، أخرجه: البيهقي/شعب الإيمان(٥٦٧)(٢/٩٣).

(٤) المناوي/فيض القدير(٣/٥٢٦).

(٥) صحيح، أخرجه: أحمد/مسنده(٧٠١)(٢/١٠٩).

قَوْلُهُ: (**إِذَا نَزَلَ بِي كَرْبٌ**) أَيْ: إذا حَلَّ بِالْمَرْءِ الْغَمُّ الَّذِي يَأْخُذُ النَّفْسَ، وَقِيلَ: الْكَرْبُ أَشَدُّ الْغَمِّ[1].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى الْكَرْبِ: هُوَ مَا يَدْهَمُ الْمَرْءَ مِمَّا يَأْخُذُ بِنَفْسِهِ فَيَغُمُّهُ وَيُحْزِنُهُ[2].

وَقَوْلُهُ: (**لَا إِلَهَ إِلا اللهُ**) أَيْ: لِيَفْزَعَ إِلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي بِهَا تُحْقَنُ الدِّمَاءُ وَالْأَمْوَالُ، وَتُدْفَعُ الْكُرُوبُ وَالْأَهْوَالُ[3]، وَمَعْنَاهَا: لا أَحَدَ يَسْتَحِقُّ أَنْ تَأْلَهَهُ الْقُلُوبُ بِغَايَةِ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ إِلَّا اللهَ.

وَقَوْلُهُ: (**الْحَلِيمُ**) مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ: ذُو الصَّفْحِ وَالْأَنَاةِ الَّذِي لَا يَسْتَخِفُّهُ عِصْيَانُ الْعُصَاةِ، وَلا يَسْتَفِزُّهُ الْغَضَبُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِقْدَارًا، فَهُوَ مُنْتَهٍ إِلَيْهِ[4].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَلِيمٌ غَفُورٌ، أَيْ: يَرَى عِبَادَهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَهُ، وَهُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ وَيَنْظُرُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يَعْجَلُ، وَيَسْتُرُ آخَرِينَ وَيَغْفِرُ[5].

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحَلِيمُ" الذِي يَدُرُّ عَلَى خَلْقِهِ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ والبَاطِنَةَ، مَعَ مَعَاصِيهِم وَكَثْرَةِ زَلَّاتِهِم، فَيَحْلُمُ عَنْ مُقَابَلَةِ العَاصِينَ بِعِصْيَانِهِم، وَيَسْتَعْتِبُهُم كَيْ يَتُوبُوا، وَيُمْهِلُهُم كَيْ يُنِيبُوا[6].

وَقَوْلُهُ: (**الْكَرِيمُ**) الَّذِي يُعْطِي بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ وَبِدُونِ الْمِنَّةِ[7].

قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى الْكَرِيمِ: إِنَّهُ النَّفَّاعُ مِنْ قَوْلِهِمْ: شَاةٌ كَرِيمَةٌ إِذَا كَانَتْ غَزِيرَةَ

---

(١) المباركفوري/تحفة الأحوذي(٩/٢٧٨).

(٢) ابن حجر/فتح الباري(١١/١٤٥).

(٣) الصنعاني/التنوير شرح الجامع الصغير(٨/٣٦٩).

(٤) البغوي/شرح السنة(٥/١٢٢).

(٥) ابن كثير/تفسيره(٦/٥٥٧).

(٦) السعدي/تفسيره(ص٩٤٨).

(٧) القاري/مرقاة المفاتيح(٣/٩٩١).

الْلَّبَنِ تَدُرُّ عَلَى الْحَالِبِ وَلَا تَقْلِصُ بِأَخْلَافِهَا، وَلَا تَحْبِسُ لَبَنَهَا[١].

وَقَوْلُهُ: (**سُبْحَانَ اللَّهِ**) أَيْ: أُنَزِّهُهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، وَعَنْ كُلِّ نِدٍّ وَشَرِيْكٍ، وَعَنْ كُلِّ مَالَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَعَنْ كُلِّ مَا يَخْطُرُ بِبَالِي؛ فَإِنَّهُ وَرَاءَ ذَلِكَ[٢].

وَقَوْلُهُ: (**رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**) أَيْ: خَالِقِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وَمَالِكِهِ، وَخَالِقِ كُلِّ مَا دُونَهُ، وَالْإِضَافَةُ تَشْرِيفِيَّةٌ؛ لِتَنَزُّهِهِ تَعَالَى عَنِ الِاحْتِيَاجِ إِلَى شَيْءٍ، وَعَنْ جَمِيعِ سِمَاتِ الْحُدُوثِ[٣].

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَي: الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ مَا دُونَهُ، وَالْمُلُوكُ كُلُّهُمْ مَمَالِيكُهُ وَعَبِيدُهُ.

وَإِنَّمَا عَنَى بِوَصْفِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْخَبَرَ عَنْ جَمِيعِ مَا دُونَهُ أَنَّهُمْ عَبِيدُهُ، وَفِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ؛ لِأَنَّ "الْعَرْشَ الْعَظِيمَ"، إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمُلُوكِ، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ "ذُو الْعَرْشِ" دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ دُونَ غَيْرِهِ، وَأَنَّ مَنْ دُونَهُ فِي سُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ، جَارٍ عَلَيْهِ حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ[٤].

وَقَوْلُهُ: (**الْعَظِيمِ**) صِفَةٌ لِلْمُضَافِ أَيْ: لِلرَّبِّ، أَوِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ أي: للعرشِ، وَالثَّانِي أَبْلَغُ، وَوَصْفُهُ -أي العرش- بِالْعَظَمَةِ؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمُحِيطٌ بِالْمُكَوَّنَاتِ[٥]، وَأَنَّهُ إِذَا خَلَقَ الشَّيْءَ العَظِيْمَ لَمْ يُعْجِزْهُ خَلْقُ مَا دُوْنَهُ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر.

وَقَوْلُهُ: (**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) أَيْ: لَهُ الْحَمْدُ الْمُطْلَقُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ: مَالِكُهُمْ وَخَالِقُهُمْ، وَمُرَبِّيهِمْ وَمُصْلِحُ أُمُورِهِمْ، وَمُعْطِي حَاجَاتِهِمْ، وَمُجِيبُ دَعَوَاتِهِمْ[٦].

قَالَ الْبِرْمَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا الذِّكْرُ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَفِيهِ التَّوْحِيدُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّنْزِيهَاتِ الْمُسَمَّى بِالْأَوْصَافِ الْجَلَالِيَّةِ، وَفِيهِ الْعَظَمَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ، وَالْحِلْمُ الَّذِي يَدُلُّ

---

(١) البيهقي/الأسماء والصفات(١/١٤٥).

(٢) القاري/مرقاة المفاتيح(٣/٩٩١).

(٣) القاري/مرقاة المفاتيح(٣/٩٩١).

(٤) الطبري/تفسيره(١٤/٥٨٧).

(٥) القاري/مرقاة المفاتيح(٣/١١٧١).

(٦) القاري/مرقاة المفاتيح(٣/٩٩١-٩٩٢).

عَلَى الْعِلْمِ...[1].

وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا الذِّكْر مِنْهُ ﷺ إِعْلَامٌ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِزَالَةِ الْغَمِّ إِلَّا اللهُ؛ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الحُسْنَى، وَصِفَاتِه العُظْمَى[2].

وَقَالَ الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ جَلاءٌ لِلقَلْبِ عَنْ كُلِّ كَرْبٍ، وَغَسْلٌ لِأَدْرَانِهِ عَنْ أَحْزَانِهِ فَهُوَ يَفْزَعُ عِنْدَ الهُمُوم إِلَى أَحد أَمْرَيْنِ: إِمَّا الصَّلاةِ، أَوْ هَذَا الذِّكْر[3].

وَقَالَ ابْنُ عَلَّانٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي الْإِتْيَانِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَوِ الدَّعَوَاتِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الدَّوَاءَ مِنَ الْكَرْبِ تَوْحِيدُ اللهِ ﷻ، وَعَدَمُ النَّظَرِ إِلَى سِوَاهُ أَصْلاً، فَمَنْ صَفَا لَهُ هَذَا الْمَشْرَبُ فُرِّجَ عَنْهُ الْكَرْبُ، وَنَالَ مِنَ الْفَضْلِ الْأَسْنَى مَا أَحَبَّ[4].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: **(لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ)**[5].

قَوْلُهُ: **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الحَلِيمُ)** اشْتَمَل هَذَا على التَّوْحِيد الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّنْزِيهَاتِ الْمُسَمَّيَاتِ بِالْأَوْصَافِ الجَلَالِيَّة، وَعَلَى الْعَظَمَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَة الْعَظِيمَة إِذِ الْعَاجِزُ لَا يَكُونُ عَظِيماً، وعَلَى الحِلْمِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْعِلْم، إِذِ الجَاهِلُ بِالشَّيْءِ لَا يُتَصَوَّر مِنْهُ الحِلْمُ، وَهُمَا أَصْلُ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ الحَقِيقِيَّةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْأَوْصَافِ الْإِكْرَامِيَّة، وَوَجْهُ تَخْصِيصِ الذِّكْرِ بِالحَلِيم لِأَنَّ كَرْبَ الْمُؤْمِنِ غَالِباً إِنَّمَا هُوَ عَلَى نَوْعِ تَقْصِيرٍ فِي الطَّاعَاتِ أَوْ غَفْلَةٍ فِي الحَالَاتِ وَهَذَا يُشْعِرُ بِرَجَاءِ الْعَفْوِ الْمُقَلِّلِ لِلْحُزْنِ[6].

وَقَوْلُهُ: **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرِبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ)** أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِغَايَةِ

---

(١) البرماوي/اللامع الصبيح(١٥/٣٨٢).

(٢) ابن الملك/شرح المصابيح(٣/١٨٩).

(٣) الصنعاني/التنوير شرح الجامع الصغير(٨/٣٦٩).

(٤) ابن علان/دليل الفالحين(٧/٣٠٥).

(٥) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٣٤٦)(٨/٧٥).

(٦) العيني/عمدة القاري(٢٢/٣٠٢).

الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ إِلَّا اللهُ، مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَمُصْلِحُهُ، وَمِنْ مُتَعَلَّقَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْعَرْشِ؛ فَإِنَّهَا أَعْظَمُ آيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ[1].

وَقَوْلُهُ: (الكَرِيمِ) بِالْجَرِّ صِفَةُ الْعَرْشِ وَوُصِفَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[2].

وَ(الْعَرْشِ الْعَظِيم) وُصِفَ بِـ: (الْعَظِيم) بِاعْتِبَارِ الْكَمِّيَّةِ، وَوُصِفَ بِـ: (الْكَرِيم) بِاعْتِبَارِ الْكَيْفِيَّةِ، فَاجْتَمَعَ فِيهِ الْعَظَمَةُ وَالْحُسْنُ، فَهُوَ مَمْدُوحٌ ذَاتًا وَصِفَةً، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ أَجْسَامِ الْعَالَمِ، فَيَدْخُلُ الْأَدْنَى تَحْتَهُ، وَأَتَى بِلَفْظِ: (رَبِّ) مِنْ بَيْنِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى؛ لِمُنَاسَبَتِهِ لِكَشْفِ الْكَرْبِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى التَّرْبِيَةِ[3].

قُلْتُ: ذِكْرُ الْعَرْشِ فِي الْحَدِيثِ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى الرَّبِّ فِيهِ تَنْبِيهٌ لِلْقُلُوبِ بِمُتَعَلَّقَاتِ عَظَمَةِ اللهِ، وَالَّتِي مِنْهَا خَلْقُ الْعَرْشِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَكْشِفَ كَرْبَ عَبْدِهِ، وَيَدْفَعَ هَمَّهُ وَغَمَّهُ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ مَنِ اعْتَقَدَ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَتَوَسَّلَ بِذِكْرِهَا أَنْ يَقْبَلَ اللهُ وَسِيلَتَهُ، وَيَسْتَجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَيُعْطِيَهُ مَسْأَلَتَهُ.

قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذَا حَدِيثٌ جَلِيلٌ يَنْبَغِي الِاعْتِنَاءُ بِهِ وَالْإِكْثَارُ مِنْهُ عِنْدَ الْكَرْبِ وَالْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَانَ السَّلَفُ يَدْعُونَ بِهِ وَيُسَمُّونَهُ دُعَاءَ الْكَرْبِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا ذِكْرٌ وَلَيْسَ دُعَاءً.

فَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ مَشْهُورَيْنِ: **أَحَدُهُمَا:** أَنَّ هَذَا الذِّكْرَ يَسْتَفْتِحُ بِهِ الدُّعَاءَ ثُمَّ يَدْعُو بِمَا شَاءَ، **وَالثَّانِي:** جَوَابُ سُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ فَقَالَ: "أَمَا عَلِمْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ"[4].

وَقَالَ أُمَيَّةُ بنُ أَبِي الصَّلْتِ فِي مَدْحِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جُدْعَانَ:

---

(١) انظر: ابن علان/دليل الفالحين(٧/٣٠٥).

(٢) ابن علان/دليل الفالحين(٧/٣٠٥).

(٣) البرماوي/اللامع الصبيح(١٥/٣٨٢).

(٤) النووي/شرحه على مسلم(١٧/٤٨).

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِكَ الثَّنَاءُ

وَقَالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَهَذَا مَخْلُوقٌ حِينَ نُسِبَ إِلَى الْكَرَمِ اكْتَفَى بِالثَّنَاءِ عَنِ السُّؤَالِ، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ[1].

وَقَالَ السَّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الدُّعَاء قَدْ يَكُونُ صَرِيحًا كَمَا تَقولُ: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي، وَقَدْ يَكُونُ تَعْرِيْضاً كَمَا إِذَا أَثْنَى على الله تَعَالَى، فَإِن الثَّنَاء عَلَى الْكَرِيم سُؤَالٌ[2].

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَالَّذِي يَقْطَعُ النِّزَاعَ، وَأَنَّ هَذَا يُسَمَّى دُعَاءً، وَإِنْ لَمْ يكُنْ فِيهِ مِنْ مَعْنَى الدُّعَاءِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ لِلَّهِ تَعالَى وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ، فعَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(دعوةُ ذِي النُّوْنِ إِذَا دَعَا بِهَا فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَدْعُوَ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَه)**[3][4].

وَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفِقْهِ أَنَّ الْكَرْبَ وَالْغَمَّ لَا يُزِيلُهُ إِلَّا اللهُ، وَهَذِهِ الكَلِمَاتُ إِذَا قَالَهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ عِنْدَ مَخَافَتِهِ؛ آمَنَهُ اللهُ ﷻ مِنَ الْمُخُوفِ، فَإِذَا قَالَهَا عِنْدَ الْخَوْفِ فَقَدْ عَزَلَ ذَلِكَ الشَّيْءَ الْمُخُوف مِنْ رُتْبَةِ أَنْ يُخَافَ؛ لِقَوْلِهِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَفِي ضِمْنِ هَذِهِ أَنْ لَا يَخَافَ غَيْرَهُ، وَأَنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ، فَمِنْ ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ بِهَا أَنْ لَا يَخَافَ سِوَى اللهِ ﷻ؛ لِأَنَّ مَنْ عَدَاهُ قَاصِرٌ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مَا إِلَّا بِتَسْلِيطِ مَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَيَكُونُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ مَعْنَيَيْنِ لِمَنْ لَا يُفْعَلُ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا عَنْ إِذْنٍ مِنْهُ أَوْ إِقْدَارٍ لِفَاعِلِهِ عَلَى فِعْلِهِ.

ثُمَّ أَتْبَعَهَا (بِالتَّعْظِيمِ)، وَكَانَ هَذَا النُّطْقُ تَالِيًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّوْحِيدِ مُشْعِرًا كُلَّ سَامِعٍ بِالْعَظَمَةِ الَّتِي لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ بِحَيْثُ صَغُرَتِ الْخَلَائِقُ وَالْمَوْجُودَاتُ كُلُّهَا، وَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ عِنْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الْعَظَمَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ لِنَاطِقٍ جُرْأَةٌ عَلَى قَوْلٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُتْبعَ هَذَا النُّطْقَ بِقَوْلِهِ: (**الْحَلِيمِ**).

---

(١) ابن بطال/شرحه على البخاري(١٠/١٠٩).

(٢) السيوطي/شرحه على سنن ابن ماجه(ص ٢٧٧).

(٣) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٥٠٥)(٥/٥٢٩).

(٤) القرطبي/تفسيره(٨/٣١٤).

فَهَذَا كُلُّهُ بِقَوْلِهِ لِنَفْسِهِ أَنَّ عَظَمَتَهُ الَّتِي لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ لَا يُوَازِيهَا إِلَّا حِلْمُهُ تَعَالَى ﷻ، وَيَقْتَضِي إِتْبَاعَ الْعَظَمَةِ بِذِكْرِ الْحِلْمِ أَيْضًا أَنَّ النَّاطِقَ بِهَذَا الْقَوْلِ يَتَخَوَّفُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَصَى اللهَ سُبْحَانَهُ وَأَغْضَبَهُ لَمَّا خَطَرَ فِي قَلْبِهِ خَوْفٌ لِغَيْرِهِ، فَخَافَ مِنْ سَخَطِهِ، فَأَتْبَعَ ذَلِكَ بِمَا تَدَارَكَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ﴾.

وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّ الْمُتَجَرِّئَ عَلَيْكَ الَّذِي أَخَافَكَ إِنَّمَا تَجَرَّأَ عَلَيْكَ بِحُكْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ لَا أَنَّهُ قَدِرَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مُرَاغَمَةً. وَقَدْ كُنْتُ عِنْدَ عَوْدَتِي مِنَ الْحَجِّ سَبَقْتُ أَنَا وَإِخْوَتِي النَّاسَ فِي الْقُفُولِ فَوَصَلْنَا إِلَى الْمَعْبَرِ الْمَعْرُوفِ بِصَرْصَرٍ وَعَلَيْهِ خَيْمَةٌ مَضْرُوبَةٌ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الْمَكَّاسِينَ فَحَبَسُونَا هُنَاكَ مِنْ وَقْتِ ضَحْوَةٍ إِلَى بَيْنَ صَلَاتَيِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ عَلَى شَوْقِنَا إِلَى أَهْلِينَا، وَكَوْنِنَا قَدْ سَبَقْنَا الْحَاجَّ مُؤْذِنِينَ بِوُصُولِهِمْ وَمُخْبِرِينَ بِسَلَامَتِهِمْ، فَكَانَ أَصْحَابُ الْمَكْسِ يَتَحَيَّرُونَ عَلَيْنَا غَيْرَ مُبَالِينَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَكُنْتُ أَنَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ أَعْجَبُ مِنْ حِلْمِ اللهِ ﷻ عَنْهُمْ، وَأَقُولُ مِنْ كَلَامِي مَا مَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ لَا تَعْدِمْ خَلْقَكَ حِلْمَكَ.

فَأَمَّا ذِكْرُ الْعَرْشِ؛ فَلِأَنَّهُ أَكْبَرُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْلَاهَا، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ تَحْتَهُ وَدُونَهُ، فَإِذَا آمَنْتَ بِأَنَّ اللهَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّ الْعَرْشَ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَمَّا ذَكَرَ التَّوْحِيدَ وَالْعَظَمَةَ وَالْحِلْمَ وَالْعَرْشَ الْعَظِيمَ نَزَلَ إِلَى ذِكْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَأَقَرَّ بِأَنَّهُ خَالِقُهُمَا، ثُمَّ عَادَ فَصَعَدَ إِلَى أَعْلَى الْمَخْلُوقَاتِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، وَلَمَّا وَصَفَ الْعَرْشَ بِالْعِظَمِ وَصَفَهُ بِالْكَرَمِ، وَلَيْسَ كُلُّ عَظِيمٍ كَرِيمًا فَجَمَعَ لَهُ الْوَصْفَيْنِ؛ أَيْ: أَنَّهُ عَظِيمُ الْخِلْقَةِ، وَهُوَ كَرِيمٌ عَلَى خَالِقِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْكَوْنَ مِنْ جِهَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: رَبِّ التَّحْتِ وَالْفَوْقِ، ثُمَّ أَعَادَ بَعْدَ ذَلِكَ فَكَرَّرَ ذِكْرَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ كَرِيمٌ، وَإِذَا قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُوقِنٌ بِهَا زَالَ كَرْبُهُ، وَأَيُّ كَرْبٍ يَبْقَى مَعَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعَزِيزَةِ[1].

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلِهَذَا كَانَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي دُعَاءِ الْكَرْبِ مُشْتَمِلًا عَلَى تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَوَصْفِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِالْعَظَمَةِ وَالْحِلْمِ، وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مُسْتَلْزِمَتَانِ لِكَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْإِحْسَانِ، وَالتَّجَاوُزِ، وَوَصْفِهِ بِكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَالَمِ

---

(١) ابن هبيرة/الإفصاح(٣/٨٥).

الْعُلْوِيِّ، وَالسُّفْلِيِّ، وَالْعَرْشِ الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَعْظَمُهَا، وَالرُّبُوبِيَّةُ التَّامَّةُ تَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَهُ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ، وَالْحُبُّ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالْإِجْلَالُ، وَالطَّاعَةُ إِلَّا لَهُ.

وَعَظَمَتُهُ الْمُطْلَقَةُ تَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ، وَسَلْبَ كُلِّ نَقْصٍ وَتَمْثِيلٍ عَنْهُ. وَحِلْمُهُ يَسْتَلْزِمُ كَمَالَ رَحْمَتِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ.

فَعِلْمُ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتُهُ بِذَلِكَ تُوجِبُ مَحَبَّتَهُ، وَإِجْلَالَهُ، وَتَوْحِيدَهُ فَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ الِابْتِهَاجِ وَاللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ، مَا يَدْفَعُ عَنْهُ أَلَمَ الْكَرْبِ وَالْهَمِّ، وَالْغَمِّ، وَأَنْتَ تَجِدُ الْمَرِيضَ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ مَا يَسُرُّهُ وَيُفْرِحُهُ وَيُقَوِّي نَفْسَهُ، كَيْفَ تَقْوَى الطَّبِيعَةُ عَلَى دَفْعِ الْمَرَضِ الْحِسِّيِّ، فَحُصُولُ هَذَا الشِّفَاءِ لِلْقَلْبِ أَوْلَى وَأَحْرَى.

ثُمَّ إِذَا قَابَلْتَ بَيْنَ ضِيقِ الْكَرْبِ وَسَعَةِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا دُعَاءُ الْكَرْبِ؛ وَجَدْتَهُ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِتَفْرِيجِ هَذَا الضِّيقِ، وَخُرُوجِ الْقَلْبِ مِنْهُ إِلَى سَعَةِ الْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ إِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَا مَنْ أَشْرَقَتْ فِيهِ أَنْوَارُهَا، وَبَاشَرَ قَلْبُهُ حَقَائِقَهَا[(١)].

وَفِي ذِكْرِ قَصَصِ بَعْضِ مَنِ انْتَفَعَ بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ:

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كُنْتُ بِأَصْبَهَانَ عِنْدَ أَبِي نُعَيْمٍ أَكْتُبُ الْحَدِيثَ وَهُنَاكَ شَيْخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو بَكْرِ بنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ مَدَارُ الْفُتْيَا، فَسُعِيَ بِهِ عِنْدَ السُّلْطَانِ فَسُجِنَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَنَامِ وَجِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِهِ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ بِالتَّسْبِيحِ لَا يَفْتُرُ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: قُلْ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ عَلِيٍّ يَدْعُو بِدُعَاءِ الْكَرْبِ الَّذِي فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: فَأَصْبَحْتُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَدَعَا بِهِ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا قَلِيلا حَتَّى أُخْرِجَ"[(٢)].

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ لَهُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: كَتَبَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ حَيَّانَ انْظُرِ الْحَسَنَ بْنَ الْحَسَنِ فَاجْلِدْهُ مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَأَوْقِفْهُ لِلنَّاسِ. قَالَ: فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَجِيءَ بِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَمِّ تَكَلَّمْ بِكَلِمَاتِ الْفَرَجِ يُفَرِّجِ اللَّهُ عَنْكَ **فَذَكَرَ حَدِيثَ عَلِيٍّ بِاللَّفْظِ الثَّانِي** فَقَالَهَا فَرَفَعَ إِلَيْهِ عُثْمَانُ رَأْسَهُ فَقَالَ: أَرَى وَجْهَ رَجُلٍ كُذِبَ عَلَيْهِ خَلُّوا سَبِيلَهُ، فَسَأَكْتُبُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِعُذْرِهِ

---

(١) ابن القيم/زاد المعاد(٤/١٨٧).

(٢) ابن بطال/شرحه على البخاري(١٠/١٠٩).

فَأُطْلِقَ[1].

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ وَالطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بنِ الْحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ قَالَ: لَمَّا زَوَّجَ عَبْدُ اللهِ بنُ جَعْفَرٍ ابْنَتَهُ قَالَ لَهَا: إِنْ نَزَلَ بِكِ أَمْرٌ فَاسْتَقْبِلِيهِ بِأَنْ تَقُولِي: **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** قَالَ الْحَسَنُ: فَأَرْسَلَ إِلَيَّ الْحَجَّاجُ؛ فَقُلْتُهُنَّ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَلَأَنْتَ الْيَوْمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا، وَزَادَ فِي لَفْظٍ فَسَلْ حَاجَتَكَ[2].

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دُعَاءِ الْمُضْطَرِّ: **(اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)**[3].

قَوْلُهُ: **(دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ)** أَيِ: الدَّعْوَاتُ النَّافِعَاتُ فِي كَشْفِ مَا يُصِيبُ النَّفْسَ مِنْ هَمٍّ وَغَمٍّ وَحَزَنٍ.

وَيُؤْذِنُ أَنَّ بَعْضَ الْأَدْعِيَةِ خَاصٌّ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ أَوِ الْأَمَاكِنِ، وَمُرَاعَاةُ خُصُوصِيَّتِهَا فِي مُتَعَلَّقَاتِهَا مِنَ الْحَالِ أَوْ غَيْرِهِ أَنْفَعُ مِنِ اسْتِبْدَالِهَا بِأَدْعِيَةٍ عَامَّةٍ، وَحَدِيثُ أَبِي بَكْرَةَ هَذَا خَاصٌّ فِي تَفْرِيجِ الْكَرْبِ، فَإِذَا اسْتُعْمِلَ فِيهِ كَانَ أَسْرَعَ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ. واللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: **(اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)** أَيْ: أَدْعُوكَ يَا إِلَهِي وَحْدَكَ أَنْ تَمْنَحَنِي رَحْمَتَكَ، فَإِنَّهَا أَنْفَعُ لِي فِي تَحْصِيلِ رَغَائِبِي، وَكَشْفِ ضُرِّي، وَدَفْعِ هُمُومِي وَأَحْزَانِي، وَلَا تَدَعْنِي وَضَعْفِي وَعَجْزِي وَجَهْلِي إِلَى نَفْسِي لَحْظَةً قَلِيلَةً وَلَوْ قَدْرَ مَا يَتَحَرَّكُ الْبَصَرُ[4]؛ فَإِنَّهَا أَعْدَى لِي مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِي، وَإِنَّهَا عَاجِزَةٌ لَا تَقْدِرُ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِي[5]. وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهَا مَنْ خَلَقَهَا وَيَعْلَمُ حَقِيقَةَ أَمْرِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يُوسُفُ:٥٣].

---

(١) أخرجه: ابن أبي الدنيا/الفرج بعد الكرب(٦٦)(ص٦٤).

(٢) ابن حجر/فتح الباري(١١/١٤٧).

(٣) حسن، أخرجه: أبو داود/سننه(٥٠٩٠)(٤/٣٢٤).

(٤) المناوي/التيسير بشرح الجامع الصغير(٢/٦).

(٥) القاري/مرقاة المفاتيح(٤/١٦٩٧).

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرَّحْمَةُ عَامَّةٌ، فَيَلْزَمُ تَفْوِيضُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللَّهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَإِذَا فَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي؛ لِأَنِّي لَا أَدْرِي مَا صَلَاحُ أَمْرِي وَمَا فَسَادُهُ، وَرُبَّمَا زَاوَلتُ أَمْرًا وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ فِيهِ صَلَاحَ أَمْرِي، فَانْقَلَبَ فَسَادًا، وَبِالْعَكْسِ. وَلَمَّا فَرَغَ عَنْ خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَأَرَادَ أَنْ يَنْفِيَ تَفْوِيضَ أَمْرِهِ إِلَى الْغَيْرِ وَيُثْبِتَهُ لِلَّهِ قَالَ: **(وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي)** أَيْ: أَمْرِي **(كُلَّهُ)** تَأْكِيدٌ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ رَبِّي وَخَالِقِي وَمَالِكُ أَمْرِي، وَمُصْلِحُ شُئُونِي كُلِّهَا فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي وَآخِرَتِي، وَلَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا بِكَ **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)**[(١)]، كَلِمَةٌ تُفِيدُ تَفْرِيدَ اللهِ فِي الْعِبَادَةِ، إِذْ هُوَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ الَّذِي يُعْبَدُ بِأَشَدِّ الْحُبِّ مَعَ أَشَدِّ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ فِي النِّعَمِ كُلِّهَا، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أُقِرُّ مُصَدِّقًا بِأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ لِي بِحَقٍّ إِلَّا أَنْتَ، فَاجْعَلْنِي فِي حِفْظِكَ وَمَعِيَّتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَهِدَايَتِكَ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي الْعَاجِزَةِ الْجَاهِلَةِ وَلَوْ لُحَيْظَةً كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مِنْ تَحْقِيقِ الرَّجَاءِ لِمَنِ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ، وَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ؛ أَنْ يَتَوَلَّى إِصْلَاحَ شَأْنِهِ، وَلَا يَكِلَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِتَوْحِيدِهِ مِمَّا لَهُ تَأْثِيرٌ قَوِيٌّ فِي دَفْعِ هَذَا الدَّاءِ"[(٢)].

قُلْتُ: أَفَادَ الْحَدِيثُ بِدَلَالَةِ التَّضَمُّنِ أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ؛ فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ، وَيَسَّرَ أَمْرَهُ.

وَأَفَادَ بِدَلَالَةِ الْعِبَارَةِ أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ النَّفْسَ مَقْهُورَةٌ بِصِفَاتِ الْعَجْزِ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ بِكَمَالِ الْحُبِّ، وَكَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَدَفَعَتْهُ هَذِهِ الْعَقَائِدُ إِلَى الدُّعَاءِ بِالْكَيْنُونَةِ فِي مَعِيَّةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَحِفْظِهِ مِنْ سُلْطَانِ النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ، وَإِلَى الدُّعَاءِ بِصَلَاحِ شَأْنِهِ كُلِّهِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ ﷻ مَا أَغَمَّهُ وَأَهَمَّهُ، وَكَشَفَ عَنْهُ مَا كَرَبَهُ وَأَحْزَنَهُ.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ**

---

(١) الطيبي/شرح المشكاة(٦/١٩٠٦).

(٢) ابن القيم/الطب النبوي(ص ١٥٣).

تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ - أَوْ فِي الْكَرْبِ -؟ أَللَّهُ أَللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)[1].

قَوْلُهُ: (أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ) يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (أَلَا) لِلتَّنْبِيهِ، وَأَنْ تَكُونَ الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ، وَلَا لِلنَّفْيِ، وَسَقَطَ الْجَوَابُ بِبَلَى اخْتِصَارًا أَوْ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ، وَالْمَعْنَى: أَلَا أُخْبِرُكِ بِكَلِمَاتٍ[2].

وَقَوْلُهُ: (عِنْدَ الْكَرْبِ) الكَرْبُ: هُوَ مَا يَدْهَمُ الإِنْسَانَ، وَيَأْخُذُ بِنَفْسِهِ فَيُحْزِنُهُ وَيَغُمُّهُ[3].

وَقَوْلُهُ: (أَللَّهُ أَللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا): جَمَعَ نَوْعَيِ التَّوْحِيدِ: تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ، وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (أَللَّهُ أَللَّهُ لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)، فَإِنَّ لَفْظَ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِلَهِ، بِمَعْنَى الْمَأْلُوهِ: أَيْ: الْمَعْبُودُ الَّذِي تَعْبُدُهُ الْقُلُوبُ بِغَايَةِ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَقَوْلُهُ: (لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) بَيَانُ تَأْكِيدٍ لِاسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) أَيْ: أُقِرُّ مُصَدِّقًا أَنَّ اللهَ هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

وَتَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ: وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (رَبِّي) أَيْ: الَّذِي خَلَقَنِي، وَخَلَقَ كُلَّ لَوَازِمِ تَرْبِيَتِي، وَنَجَاحِ مَصَالِحِي مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَلِبَاسٍ، وَمَسْكَنٍ وَمَرْكَبٍ، وَشِفَاءٍ، وَسَعَادَةٍ، وَهِدَايَةٍ، وَثَبَاتٍ عَلَى الْهُدَى وَغَيْرِهَا، وَلَمْ يُشَارِكْهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ، فَمَنِ اعْتَقَدَ هَذَا التَّوْحِيدَ بِنَوْعَيْهِ، وَصَدَّقَ بِهِ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ، وَتَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بِالْإِقْرَارِ بِهِ، كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ وَأَغَمَّهُ.

وَأَفَادَ الْحَدِيثُ وَالَّذِي قَبْلَهُ أَنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ تَوْحِيدُ اللهِ؛ فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مَا يُتَوَسَّلُ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَدَفْعِ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ هُوَ التَّوْحِيدُ.

أَهَمِّيَّةُ التَّوْحِيدِ:

أَوَّلًا: التَّوْحِيدُ أَسَاسُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ:

فَمَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا رَسُولٍ إِلَّا وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النَّحْلُ: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

---

(١) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(١٥٢٥)(٢/٨٧).

(٢) القاري/مرقاة المفاتيح(٤/١٦٩٩).

(٣) الصنعاني/التنوير شرح الجامع الصغير(٤/٣٧٠).

مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٦٥].

أَفَادَتْ هَذِهِ الْأَخْبَارُ أَنَّ أَسَاسَ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- تَوْحِيدُ اللهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَتَجْرِيدُهَا عَنِ الشِّرْكِ كُلِّهِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[1].

دَلَّ الْحَدِيثُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ التَّوْحِيدَ أَسَاسَ سِلْمِهِ وَحَرْبِهِ، وَوَلَائِهِ وَبَرَائِهِ، يُوَالِي مَنْ يَقْبَلُ التَّوْحِيدَ، وَيُعَادِي مَنْ يَرْفُضُهُ.

ثَانِيًا: التَّوْحِيدُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ وَآخِرُ الْمَنَازِلِ:

أَمَّا أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَنَازِلِ؛ فَظَاهِرٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[2].

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَبْدَأَ دَعْوَتَهُ إِلَى النَّاسِ بِالتَّوْحِيدِ، فَإِنَّهُ أَصْلُ الْعِبَادَاتِ،

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٥)(١/١٤)، مسلم/صحيحه(٢٢)(١/٥١).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٣٤٧)(٥/١٦٢).

وَشَرْطُ قَبُولِهَا، فَإِنْ قَبِلُوا مِنْهُ وَصَدَّقُوا وَأَطَاعُوا؛ أَمَرَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِفَرَائِضِ الْعِبَادَاتِ.

وَأَمَّا أَنَّهُ آخِرُ الْمَنَازِلِ؛ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يُوسُفُ: ١٠١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٣٢-١٣٣].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**)[1].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: أَسْنَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى صَدْرِي فَقَالَ: (**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ؛ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**)[2].

دَلَّتِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ عَلَى لُزُومِ اسْتِصْحَابِ التَّوْحِيدِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى حِرَاسَتِهِ مُدَّةَ الْحَيَاةِ، **قَالَ تَعَالَى**: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٦٢-١٦٣].

وَعَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: قَالَ ﷺ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**)[3].

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً**) أَيْ: كُفْرًا وَضَلَالًا (**فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**) أَيْ: فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ مُوَحِّدًا غَيْرَ مُشْرِكٍ وَلَا ضَالٍّ.

ثَالِثًا: التَّوْحِيدُ هُوَ الْفِقْهُ الْأَكْبَرُ:

إِنَّ التَّوْحِيدَ يَتَعَلَّقُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا اسْماً وَصِفَةً وَفِعْلاً، بِخِلَافِ التَّشْرِيعِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ

---

(١) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(٣١١٦)(٣/١٩٠).

(٢) صحيح لغيره، أخرجه: أحمد/مسنده(٢٣٣٢٤)(٣٨/٣٥٠).

(٣)صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٢٣٣)(٥/٣٦٦).

مقْتَضَى التَّوْحِيدِ وَمَلْزُومَهُ، لَكِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادِ، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَا يَتَعَلَّقُ باللهِ تَعالَى وَبَيْنَ مَا يَتَعَلَّقُ بِعِبَادِهِ؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ أَشْرَفُ وَأَجَلُّ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ، أَفَأَحُجَّ عَنْهَا؟ قَالَ: **(نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟)**، قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ: **(اقْضُوا اللَّهَ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ)**[(١)].

عَلَى أَنَّ سُوَرَ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنِ اللهِ أَعْلَى قَدْراً مِنَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ عِبَادِهِ؛ فَعَنْ أُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ)**. قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ **(يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ)**. قَالَ قُلْتُ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَضَرَبَ فِى صَدْرِى وَقَالَ **(وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)**[(٢)].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ عز وجل: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ...**﴾[(٣)]، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ تَتَحَدَّثُ عَنِ اللهِ وَأَنْوَاعِ تَوْحِيدِهِ أُلُوهِيَّةً وَرُبُوبِيَّةً وَأَسْمَاءً وَصِفَاتٍ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِى لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)**. قَالُوا وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ قَالَ: **(﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)**[(٤)].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَإِنَّ الْقُرْآنَ وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ كَلَامَ اللهِ وَكَذَلِكَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْأَحَادِيثُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي يَحْكِيهَا الرَّسُولُ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَقَوْلِهِ: ﴿**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**﴾ الْحَدِيثَ وَكَقَوْلِهِ: ﴿**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْته فِي نَفْسِي**﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ وَإِنِ اشْتَرَكَتْ فِي كَوْنِهَا كَلَامَ اللهِ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكَلَامَ لَهُ نِسْبَتَانِ: نِسْبَةٌ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَنِسْبَةٌ إِلَى الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ. فَهُوَ يَتَفَاضَلُ بِاعْتِبَارِ النِّسْبَتَيْنِ وَبِاعْتِبَارِ

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٧٣١٥)(٩/١٠٢).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(٨١٠)(١/٥٥٦).

(٣) صحيح، أخرجه: سعيد بن منصور/سننه(٤٢٦).

(٤) أخرجه: مسلم /صحيحه(٨١١)(٥/٥٥٦).

نَفْسِهِ أَيْضًا مِثْلَ الْكَلَامِ الْخَبَرِيِّ لَهُ نِسْبَتَانِ: نِسْبَةٌ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ الْمُخْبِرِ وَنِسْبَةٌ إِلَى الْمُخْبَرِ عَنْهُ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ. فَـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ كِلَاهُمَا كَلَامُ اللَّهِ وَهُمَا مُشْتَرِكَانِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَكِنَّهُمَا مُتَفَاضِلَانِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ. فَهَذِهِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَبَرُهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَتِهِ الَّتِي يَصِفُ بِهَا نَفْسَهُ وَكَلَامُهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ. وَهَذِهِ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ بَعْضِ خَلْقِهِ وَيُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَيَصِفُ بِهِ حَالَهُ، وَهُمَا فِي هَذِهِ الْجِهَةِ مُتَفَاضِلَانِ بِحَسَبِ تَفَاضُلِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِالْكَلَامَيْنِ. أَلَّا تَرَى أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ هُوَ كُلُّهُ كَلَامُهُ لَكِنَّ كَلَامَهُ الَّذِي يَذْكُرُ بِهِ رَبَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي يَذْكُرُ بِهِ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالْجَمِيعُ كَلَامُهُ، فَاشْتِرَاكُ الْكَلَامَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ لَا يَمْنَعُ تَفَاضُلَهُمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَتِ النِّسْبَتَانِ أَوْ إِحْدَاهُمَا تُوجِبُ التَّفْضِيلَ أَوْ لَا تُوجِبُهُ. فَكَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ وَالْخُطَبَاءُ وَالشُّعَرَاءُ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ وَاحِدًا، وَكَذَلِكَ كَلَامُ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، وَسَوَاءٌ أُرِيدَ بِالْكَلَامِ الْمَعَانِي فَقَطْ أَوْ الْأَلْفَاظُ فَقَطْ أَوْ كِلَاهُمَا أَوْ كُلٌّ مِنْهُمَا، فَلَا رَيْبَ فِي تَفَاضُلِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي مِنَ الْمُتَكَلِّمِ الْوَاحِدِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مُجَرَّدَ اتِّفَاقِ الْكَلَامَيْنِ فِي أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِمَا وَاحِدٌ لَا يُوجِبُ تَمَاثُلَهُمَا مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ. فَتَفَاضُلُ الْكَلَامِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ خَبَرًا أَوْ إِنْشَاءً أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ وَالشِّرْعَةِ، فَلَيْسَ الْخَبَرُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْحَمْدِ لِلَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى كَالْخَبَرِ الْمُتَضَمِّنِ لِذِكْرِ أَبِي لَهَبٍ وَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ وَإِنْ كَانَ هَذَا كَلَامًا عَظِيمًا مُعَظَّمًا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الَّذِي أَمَرَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِالْمَأْمُورَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالنَّهْيَ عَنْ الشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَالزِّنَا وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَتْهُ الشَّرَائِعُ، كُلُّهَا وَمَا يَحْصُلُ مَعَهُ فَسَادٌ عَظِيمٌ كَالْأَمْرِ بِلَعْقِ الْأَصَابِعِ وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنْ اللُّقْمَةِ السَّاقِطَةِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْقِرَانِ فِي التَّمْرِ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرَانِ وَاجِبَيْنِ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ كَالْأَمْرِ بِأَخْذِ الزِّينَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَالْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَامِلِ وَإِيتَائِهَا أَجْرَهَا إِذَا أَرْضَعَتْ[1].

رَابِعًا: التَّوْحِيدُ حَاضِرٌ فِي كُلِّ سُوَرِ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ:

وَمِنْ أَنْفَسِ مَا ذُكِرَ فِي هَذَا الشَّأْنِ كَلَامُ الْإِمَامِ الْهُمَامِ ابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ فِي كِتَابِهِ الْمَدَارِجِ،

---

(١) ابن تيمية/ مجموع الفتاوى(١٧/ ٥٧).

قَالَ: "...بَلْ كُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ. بَلْ نَقُولُ قَوْلًا كُلِّيًّا: إِنَّ كُلَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ، شَاهِدَةٌ بِهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ، وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ فِي نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَهِيَ حُقُوقُ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتُهُ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ، فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ. فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ"(١).

خَامِساً: التَّوْحِيدُ حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ:

التَّوْحِيدُ مِنْ أَجْلِهِ خُلِقَ الثَّقَلَانِ، وَابْتَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ بِهِ الْكُتُبَ وَالصُّحُفَ؛ فَجُلِّيَتْ أَحْكَامُهُ كَيْ يَقُومَ بِهَا الْجِنُّ وَالْإِنْسُ حَقّاً للهِ، فَمَنْ وَفَّى نَجا، وَمَنْ ضَيَّعَ كَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الْحَجُّ: ٣٧].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَنْ يَنَالَ اللهَ مِنْ لُحُومِ هَذِهِ الذَّبَائِحِ وَلَا مِنْ دِمَائِهَا شَيْءٌ، وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْإِخْلَاصُ فِيهَا، وَأَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ وَحْدَهُ.

وَالتَّوْحِيدُ إِفْرَادُ الْعِبَادَةِ للهِ، وَهُوَ حِكْمَتُهُ مِنْ خَلْقِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦].

قَالَ صَاحِبُ أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أَيْ: إِلَّا لِيُقِرُّوا لِي بِالْعُبُودِيَّةِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يُطِيعُ بِاخْتِيَارِهِ وَالْكَافِرَ مُذْعِنٌ مُنْقَادٌ لِقَضَاءِ رَبِّهِ جَبْرًا عَلَيْهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَاخْتَارَهُ، وَيَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعْدُ: ١٥]، وَالسُّجُودُ وَالْعِبَادَةُ

---

(١) ابن القيم/مدارج السالكين(٣/٤١٧-٤١٨).

كِلَاهُمَا خُضُوعٌ وَتَذَلُّلٌ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا[1].

وَعَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: (**يَا مُعَاذُ بنَ جَبَلٍ**) قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: (**يَا مُعَاذُ**) قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: (**يَا مُعَاذُ**) قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: (**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ**) قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (**حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**) ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: (**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**) قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: (**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ**) قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (**حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ**)[2].

دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، فَمَنْ وَفَّى نَجَا وَفَازَ، وَمَنْ ضَيَّعَ كَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

سَادِسَاً: التَّوْحِيدُ أَصْلُ قَبُولِ الْأَعْمَالِ:

إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ عَمَلاً إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا مُخْلِصًا يَبْتَغِي بِالْعَمَلِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، قال تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الْكَهْفُ: ١١٠]، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْعَبْدُ مُخْلِصاً، وَأَشْرَكَ مَعَ اللهِ سِوَاهُ؛ لَمْ يُقْبَلْ عَمَلُهُ، وَإِنْ كَانَ صَالِحًا وَاسِعَ النَّفْعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾[التَّوْبَةُ: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾[الْفُرْقَانُ: ٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[النُّورُ: ٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾[إِبْرَاهِيمُ: ١٨].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ**

---

(١) الشنقيطي/أضواء البيان(٧/٤٤٤).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٥٩٦٧)(٧/١٧٠)، مسلم/صحيحه(٣٠)(١/٣٠).

الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ»[2].

وَعَنِ الضَّحَّاكِ بنِ قَيْسٍ الْفِهْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكًا فَهُوَ لِشَرِيكِي، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ لِلَّهِ ﷻ فَإِنَّ اللهَ ﷻ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا أُخْلِصَ لَهُ، وَلَا تَقُولُوا هَذَا لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ، فَإِنَّهَا لِلرَّحِمِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ ﷻ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ لِلَّهِ وَلِوُجُوهِكُمْ، فَإِنَّهَا لِوُجُوهِكُمْ لَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ»[3].

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[4].

أَيْ: إِنَّمَا صِحَّةُ الْأَعْمَالِ بِالنِّيَّةِ، وَالنِّيَّةُ: عَزِيمَةُ الْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ للهِ وَحْدَهُ.

سَابِعاً: التَّوْحِيدُ يَتَصَدَّرُ دَعْوَةَ الْبُعُوثِ وَالرُّسُلِ:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرْسَلَ رَسُولاً، أَوْ بَعَثَ بَعْثاً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَداً؛ أَوْصَاهُمْ أَنْ يَبْدَؤُوا دَعْوَةَ النَّاسِ بِالتَّوْحِيدِ، فَإِنْ أَطَاعُوهُمْ عَلَّمُوهُمْ عِبَادَةَ اللهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَغَيْرِهَا؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً ﷺ عَلَى اليَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»[5].

قَوْلُهُ: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ» فَأَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(٢٩٨٥)(٤/٢٢٨٩).

(٢) أخرجه: ابن المقرئ/معجمه(١٢٤٧)(ص٣٨٢).

(٣) أخرجه: البيهقي/شعب الإيمان(٩/١٥٩).

(٤) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٩٥٣)(٩/٢٢)، مسلم/صحيحه(١٩٠٧)(٣/١٥١٥).

(٥) أخرجه: البخاري/صحيحه(١٤٥٨)(٢/١١٩).

عَرَفُوا اللَّهَ وَفِي رِوَايَةِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَلَاءِ عَنْهُ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ وَيُجْمَعُ بَيْنَهَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَوْحِيدُهُ، وَبِتَوْحِيدِهِ الشَّهَادَةُ لَهُ بِذَلِكَ وَلِنَبِيِّهِ بِالرِّسَالَةِ، وَوَقَعَتِ الْبُدَاءَةُ بِهِمَا لِأَنَّهُمَا أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَصِحُّ شَيْءٌ غَيْرُهُمَا إِلَّا بِهِمَا، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرَ مُوَحِّدٍ فَالْمُطَالَبَةُ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الشَّهَادَتَيْنِ عَلَى التَّعْيِينِ، وَمَنْ كَانَ مُوَحِّدًا فَالْمُطَالَبَةُ لَهُ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْإِقْرَارِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْإِقْرَارِ بِالرِّسَالَةِ، وَإِنْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ مَا يَقْتَضِي الْإِشْرَاكَ أَوْ يَسْتَلْزِمُهُ كَمَنْ يَقُولُ بِبُنُوَّةِ عُزَيْرٍ أَوْ يَعْتَقِدُ التَّشْبِيهَ فَتَكُونُ مُطَالَبَتُهُمْ بِالتَّوْحِيدِ لِنَفْيِ مَا يَلْزَمُ مِنْ عَقَائِدِهِمْ[1].

وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ ﷺ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: يَوْمَ خَيْبَرَ: **(لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ)**، فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى، فَقَالَ: **(أَيْنَ عَلِيٌّ؟)**، فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ، فَدُعِيَ لَهُ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ، فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: **(عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ)**[2].

قَوْلُهُ: **(ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ)** وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عِنْدَ مُسْلِمٍ فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَامَ أُقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: **(قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)** وَاسْتُدِلَّ بِقَوْلِهِ ادْعُهُمْ أَنَّ الدَّعْوَةَ شَرْطٌ فِي جَوَازِ الْقِتَالِ وَالْخِلَافُ فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ فَقِيلَ يُشْتَرَطُ مُطْلَقًا وَهُوَ عَنْ مَالِكٍ سَوَاءٌ مَنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ أَوْ لَمْ تَبْلُغْهُمْ قَالَ إِلَّا أَنْ يُعْجِلُوا الْمُسْلِمِينَ، وَمِثْلُهُ قَالَ الشَّافِعِيُّ[3].

قَالَ الْقَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عَلَى رِسْلِكَ)** بِكَسْرٍ فَسُكُونٍ أَيْ رِفْقِكَ وَلِينِكَ **(حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ)** أَيْ: حَتَّى تَبْلُغَ فِنَاءَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ **(ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ)** أَيْ: أَوَّلًا **(وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ)** أَيْ: فِي الْإِسْلَامِ[4].

---

(١) ابن حجر/فتح الباري(٣/٣٥٨).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٩٤٢)(٤/٤٧).

(٣) ابن حجر/فتح الباري(٧/٤٧٨).

(٤)القاري/مرقاة المفاتيح(٩/٣٩٣٤).

قُلْتُ: فِي الْحَدِيثِ بَيَانٌ لِلْمَقْصِدِ الْأَسْمَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ قِيَامُ الْإِسْلَامِ فِي النَّاسِ، وَالِاهْتِدَاءُ بِهِ مِنْهَاجًا لِحَيَاتِهِمْ، وَالطَّرِيقُ الْأَمْثَلُ إِلَى ذَلِكَ دَعْوَتُهُمْ إِلَيْهِ بِالْأَخَفِّ لَا بِالْأَشَدِّ، وَيَتَعَيَّنُ الْتِزَامُ ذَلِكَ إِذَا تَرَجَّحَ أَنَّ الْأَخَفَّ يَقُودُ إِلَى الْمُرَادِ، وَبَيَانُهُ مِنَ الْحَدِيثِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ عَلِيًّا رضي الله عنه أَنْ يَبْدَأَهُمْ بِالدَّعْوَةِ وَالْإِرْشَادِ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ بِاللَّازِمِ الْعَقْلِيِّ النَّهْيَ عَنِ الْبَدَاءَةِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي الرَّاجِحِ مِنْ عِلْمِ الْأُصُولِ.

وَلَا أَنْسَى فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ أُنَبِّهَ إِلَى بَاعِثِي مِنْ إِيرَادِ الْحَدِيثِ وَهُوَ تَقْدِيمُ التَّوْحِيدِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ عِنْدَ دَعْوَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَالْجُهَلَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهُ وَاجِبُ التَّقْدِيمِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ، وَلِأَنَّهُ شَرْطُ صِحَّتِهِ، وَقَبُولِ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: (**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ...**)[1].

فِي الْحَدِيثِ بَيَانٌ لِوَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي كَانَ يُوصِي بِهَا قَادَةَ السَّرَايَا وَالْبُعُوثِ، وَفِي صَدَارَتِهَا الْبَاعِثُ الْأَسَاسُ مِنَ الْجِهَادِ وَهُوَ دَعْوَةُ النَّاسِ وَإِنْقَاذُهُمْ بِإِذْنِ اللهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَإِخْرَاجُهُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ، فَمَنْ أَطَاعَ فِي ذَلِكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُ، وَأَمْسِكُوا عَنْ حَرْبِهِ، فَقَدْ عَصَمَ نَفْسَهُ بِالْإِسْلَامِ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى شَرَفِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ الْعِلْمُ الْإِمَامُ، الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْعُلُومَ كُلَّهَا أَهَمِّيَّةً وَشَرَفًا وَفَضْلاً.

ثَامِناً: التَّوْحِيدُ يَتَقَدَّمُ الْمَوَاعِظَ:

كَانَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا وَعَظَ أَصْحَابَهُ أَوْ خَطَبَ فِيهِمْ بَدَأَ بِحَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَإِعْلَانِ التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: (**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ**

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٣٥٧/٣)(١٧٣١).

مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[١].

يَبْدُو لِي مِنْ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ أَنَّ تَقْدِيمَ النَّبِيِّ ﷺ الْخُطَبَ وَالْمَوَاعِظَ بِخُطْبَةِ الْحَاجَةِ دِيمَةً أَوْ غَالِبًا تَنْبِيهًا لِلنَّاسِ إِلَى أَهَمِّيَّةِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ أَصْلُ عُلُومِ الدِّينِ، وَأَشْرَفُهَا، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ مَا بَعْدَهُ إِلَّا بِهِ، وَأَنَّهُ أَجَلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ، وَأَعْظَمُهُ فِي تَفْرِيجِ الْكُرَبِ، وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ، فَاسْتَهَلَّ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ الْمَوَاعِظَ كَيْ تَبْقَى شَمْسُ التَّوْحِيدِ مُشْرِقَةً عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ يَعِظُ مِنْهُمْ، وَمَنْ يُوعَظُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ**) قَالَ، فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ قَالَ: فَبَايَعَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**وَعَلَى قَوْمِكَ**) قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً فَقَالَ: رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ[٢].

قَوْلُهُ: (**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ**) أَيْ: ثَابِتٌ لَهُ مُخْتَصٌّ بِهِ، سَوَاءٌ حُمِدَ أَوْ لَمْ يُحْمَدْ (**نَحْمَدُهُ**) أَيْ: لِوُجُوبِهِ عَلَيْنَا وَلِعَوْدِ نَفْعِهِ إِلَيْنَا (**وَنَسْتَعِينُهُ**) أَيْ: فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (**مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ**) أَيْ: إِلَى طَرِيقِ تَوْحِيدِهِ وَشُهُودِ تَفْرِيدِهِ بِمُقْتَضَى فَضْلِهِ (**فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ**) أَيْ: وَمَنْ يُضْلِلْهُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ فَمُوجَبِ عَدْلِهِ (**فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ**) أَيْ: مُنْفَرِدًا وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ

---

(١) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(٢١١٨)(ص ٢٤١).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(٨٦٨)(ص ٣٣٥).

كَقَوْلِهِ: **(لَا شَرِيكَ لَهُ)**، أَوِ الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ تَوْحِيدُ الذَّاتِ، وَبِالثَّانِي تَفْرِيدُ الصِّفَاتِ **(وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ)** أَيِ: الْمُخْتَصُّ الْمُكَرَّمُ **(وَرَسُولُهُ)** أَيِ: الْمَخْصُوصُ الْمُعَظَّمُ ﷺ. وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ **(أَمَّا بَعْدُ)** أَيْ: وَأَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ لَهُ خُطْبَةً عَظِيمَةً وَمَوْعِظَةً جَسِيمَةً تَعْجَزُ عَنْهُ الْبُلَغَاءُ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ الْفُصَحَاءُ، لِيَعْلَمَ الْعُقَلَاءُ أَنَّهُمْ بِجَنْبِهِ مِنَ الْمَجَانِينِ وَالسُّفَهَاءِ، **(قَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ)**، الْمُتَقَدِّمَةَ الدَّالَّةَ عَلَى جَزَالَةِ الْخَاتِمَةِ **(فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)**. يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّثْلِيثُ بِالْأُولَى كَمَا كَانَ لَهُ الْعَادَةُ أَوْ بِغَيْرِهَا، كَمَا يُفِيدُ حَقِيقَةُ الْإِعَادَةِ مَعَ زِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي مَقَامِ الْإِفَادَةِ وَتَمَامِ الِاسْتِفَادَةِ **(قَالَ)** أَيْ: ضِمَادٌ **(لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ)**. بِفَتْحَتَيْنِ جَمْعُ كَاهِنٍ وَهُوَ الْمُخْبِرُ عَنِ الْغَيْبِ بِعِبَارَاتٍ مُسَجَّعَةٍ وَإِشَارَاتٍ مُبْدِعَةٍ **(وَقَوْلَ السَّحَرَةِ)** جَمْعُ سَاحِرٍ وَهُوَ الْمُخَيِّلُ فِي الْعَيْنِ وَالذِّهْنِ مِنْ جِهَةِ قَوْلِهِ أَوْ مِنْ أَجْلِ فِعْلِهِ **(وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ)**، جَمْعُ شَاعِرٍ وَهُوَ الْمُحَلَّى بِاللِّسَانِ فِي كُلِّ شَأْنٍ حَتَّى شَانَ مَا زَانَ وَزَانَ مَا شَانَ، يُرِيدُ أَنَّهُمْ يَنْسُبُونَكَ تَارَةً إِلَى الْكَهَانَةِ وَمَرَّةً إِلَى السِّحْرِ، وَأُخْرَى إِلَى الشِّعْرِ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَةَ أَصْحَابِهَا **(فَمَا سَمِعْتُ)** أَيْ: مِنْهُمْ **(مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ)**. يَعْنِي فَلَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ لَأَشْبَهَ كَلَامُكَ كَلَامَهُمْ، فَإِذَا كَانَ كَلَامُهُ أَبْلَغَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ، فَلَا يَعُدُّهُ مَجْنُونًا إِلَّا السُّفَهَاءُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ الْكُهَّانَ وَالسَّحَرَةَ وَالشُّعَرَاءَ أَهْلَ الْبَلَاغَةِ وَالْمُتَصَرِّفِينَ فِي الْقَوْلِ عَلَى أَيِّ أُسْلُوبٍ شَاءُوا، فَأَشَارَ بِقَوْلِهِ هَذَا إِلَى الْإِعْجَازِ أَيْ: جَاوَزَ كَلَامُكَ حَدَّ الْبَلَاغَةِ، وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ ﷺ قَابَلَ كَلَامَ ضِمَادٍ بِمَا تَقَدَّمَ لِيُظْهِرَ لَهُ كَمَالَ عَقْلِهِ، وَيَتَبَيَّنَ جَهْلُ أَعْدَائِهِ.

(وَلَقَدْ بَلَغْنَ) أَيْ: هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتُ الْجَامِعَاتُ الْمُحِيطَاتُ بِحُرُوفٍ كَاللَّآلِئِ الْمَنْظُومَاتِ الَّتِي يَعْجِزُ الْغَوَّاصُ عَنْ إِخْرَاجِهَا وَإِبْرَازِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الدِّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى إِعْجَازِهَا مِنْ كَمَالِ إِيجَازِهَا **(قَامُوسَ الْبَحْرِ)**، أَيْ: مُعْظَمَ بَحْرِ الْكَلَامِ وَوَسَطَ لُجَّةِ الْمَرَامِ، وَالْمَعْنَى بَلَغَتْ غَايَةَ الْفَصَاحَةِ وَنِهَايَةَ الْبَلَاغَةِ. قَالَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ: الْقَمْسُ الْغَوْصُ وَالْغَمْسُ وَالْقَوْمَسُ مُعْظَمُ مَاءِ الْبَحْرِ كَالْقَامُوسِ وَالْقَامُوسُ الْبَحْرُ أَوْ أَبْعَدُ مَوْضِعٍ فِيهِ غَوْرًا **(هَاتِ)** بِكَسْرِ التَّاءِ **(يَدَكَ أُبَايِعْكَ)** بِالْجَزْمِ جَوَابُ الْأَمْرِ **(عَلَى الْإِسْلَامِ. قَالَ)** أَيِ: ابْنُ عَبَّاسٍ **(فَبَايَعَهُ)** أَيِ: النَّبِيُّ ﷺ[1].

---

(١) القاري/مرقاة المفاتيح(٩/٣٧٤٩).

تَاسِعاً: التَّوْحِيدُ يَتَقَدَّمُ نُصُوصَ الْبَيْعَةِ:

لِأَهَمِّيَّةِ التَّوْحِيدِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَدِّرُهُ بُنُودَ بَيْعَتِهِ الَّتِي كَانَ يَأْخُذُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَيْ يَتَحَرَّاهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَصُونُهُ مِمَّا يُنَاهِضُهُ مِنَ الشِّرْكِ، أَوْ يُضْعِفُهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ الْعَقَبَةَ الْأُولَى وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَرَضَ الْحَرْبُ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا وَلَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ وَإِنْ غَشِيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَكُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَكُمْ[1].

وَعَنْ عَوْفِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ تِسْعَةً فَقَالَ: **(أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ)**. وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ قُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ قَالَ: **(أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَتَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا)**. وَأَسَرَّ كَلِمَةً خُفْيَةً قَالَ: **(وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا)**. قَالَ فَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُهُ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يُنَاوِلَهُ إِيَّاهُ[2].

وَعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ: جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي نِسْوَةٍ نُبَايِعُهُ عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئاً، وَلاَ نَسْرِقَ، وَلاَ نَزْنِيَ، وَلاَ نَقْتُلَ أَوْلاَدَنَا، وَلاَ نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلاَ نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَقَالَ لَنَا: **(فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ، إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ)**[3].

مَنْ أَنْعَمَ النَّظَرَ فِي بُنُودِ بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي كَانَ يَأْخُذُهَا عَلَى أَصْحَابِهِ يَجِدُ أَنَّهُ كَانَ يُبَايِعُهُمْ عَلَى عَظَائِمِ الْإِسْلَامِ وَأَهَمِّ أَحْكَامِهِ فِي مَيْدَانِ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، وَكَانَ ﷺ يَجْعَلُ تَوْحِيدَ الْعِبَادَةِ، وَتَجْرِيدَهُ مِنَ الشِّرْكِ، مُتَقَدِّمًا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَلَمْ يَكُنْ يُقَدِّمُ شَيْئًا وَيُؤَخِّرُ آخَرَ إِلَّا إِذَا كَانَ الْمُقَدَّمُ أَجَلَّ وَآكَدَ، بُغْيَةَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، فَلَا يُقَدِّمُونَ مَا أَخَّرَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يُؤَخِّرُونَ مَا قَدَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَظَاهِرٌ مِنْ نُصُوصِ الْبَيْعَةِ الْبَدَاءَةُ بِالتَّوْحِيدِ دَائِمًا، فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ الْأَهَمُّ، وَالْأَوْجَبُ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا.

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٨٩٤)(٦/١٥٠)، مسلم/صحيحه(١٧٠٩)(٣/١٣٣٣).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٠٤٣)(٢/٧٢١).

(٣) صحيح، أخرجه: النسائي/سننه(٤١٨١)(٧/١٤٩)، ابن ماجه/سننه(٢٨٧٤)(٢/٩٥٩).

عَاشِراً: التَّوْحِيدُ أَهَمُّ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ:

بَنَى اللهُ الْإِسْلَامَ عَلَى قَوَاعِدَ عَظِيمَةِ الْقَدْرِ، مُتَفَاوِتَةُ الرُّتْبَةِ، أَعْلَاهَا رُتْبَةً تَوْحِيدُ اللهِ فِي الْعِبَادَةِ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)**(١).

قُدِّمَتِ الشَّهَادَتَانِ عَلَى سَائِرِ الْأَرْكَانِ؛ لِأَنَّهُمَا الْأَصْلُ الَّذِي بِهِ تُقْبَلُ الْأَرْكَانُ وَالْأَحْكَامُ، ثُمَّ تَبِعَهُ فِي الْقَدْرِ الصَّلَاةُ؛ لِأَنَّهَا الْعِمَادُ الْأَعْظَمُ، فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: **(وَعَمُودُهَا الصَّلَاةُ)**(٢)، وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ)**(٣).

وَلِذَا سُمِّيَتْ أُمَّ الْعِبَادَاتِ كَمَا سُمِّيَتِ الْخَمْرُ أُمَّ الْخَبَائِثِ، ثُمَّ الزَّكَاةُ؛ لِأَنَّهَا قَرِينَتُهَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلِلْمُنَاسَبَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ، ثُمَّ الْحَجُّ لِكَوْنِهِ مُجْمِعًا لِلْعِبَادَتَيْنِ، وَمَحَلًّا لِلْمَشَقَّتَيْنِ، وَلِأَنَّ تَارِكَهُ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ عَلَى مَدْرَجَةِ خَاتِمَةِ السُّوءِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: **(مَنِ اسْتَطَاعَ الْحَجَّ فَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا، وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا)**(٤)، وَيَدُلُّ عَلَى أَصَالَةِ الْحَدِيثِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[آلُ عِمْرَانَ: ٩٧]، حَيْثُ وُضِعَ مَنْ كَفَرَ مَوْضِعَ مَنْ لَمْ يَحُجَّ مَعَ إِفَادَةِ مُبَالَغَةِ التَّهْدِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾، حَيْثُ عَدَلَ عَنْهُ، وَأَمَّا تَأْخِيرُهُ عَنِ الصَّوْمِ كَمَا فِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ فَرِعَايَةٌ لِلتَّرْتِيبِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ فُرِضَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، وَالْحَجُّ فُرِضَ سَنَةَ خَمْسٍ، أَوْ سِتٍّ، أَوْ ثَمَانٍ، أَوْ تِسْعٍ(٥).

وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كَمَالَ الْإِسْلَامِ وَتَمَامَهُ بِهَذِهِ الْخَمْسِ، فَهُوَ كَخِبَاءٍ أُقِيمَ عَلَى خَمْسَةِ أَعْمِدَةٍ، وَقُطْبُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ الْأَرْكَانُ الشَّهَادَةُ وَبَقِيَّةُ شُعَبِ الْإِيمَانِ كَالْأَوْتَادِ لِلْخِبَاءِ(٦).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ -**

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٨)(١/١١)، مسلم/صحيحه(١٦)(١/٤٥).

(٢) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٦١٦)(٥/١٢).

(٣) أخرجه: البيهقي/شعب الإيمان(٢٥٥٠)(٤/٣٠٠).

(٤) ضعيف، البيهقي/السنن الكبرى(٨٦٦٠)(٤/٥٤٦).

(٥) القاري/مرقاة المفاتيح(١/٦٨).

(٦)الشوكاني/نيل الأوطار(١/٣٥٣).

شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)[1].

قَوْلُهُ: **(الْإِيمَانُ)** أَي: التَّصْدِيقُ بِـ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) رُكْنًا وَشَرْطًا، وَقَوْلُهُ: **(بِضْعٌ وَسَبْعُونَ)** هِيَ شُعَبُ الْإِيمَانِ، وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ، وَلَعَلَّهُ قَصَدَ أَنَّ أُصُولَ شُعَبِ الْإِيمَانِ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَصْلًا، تَنْشَأُ عَنْهَا جَمِيعُ شُعَبِهِ.

قَوْلُهُ: **(فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)** أَيْ: أَعْلَاهَا فَضْلًا وَآكَدُهَا فَرْضًا؛ لِأَنَّهَا أَصْلُ الدِّينِ، وَأُسُّ الْإِيمَانِ وَأَجَلُّ شُعَبِهِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ نَبَّهَ ﷺ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَهَا التَّوْحِيدُ الْمُتَعَيِّنُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَالَّذِي لَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنَ الشُّعَبِ إِلَّا بَعْدَ صِحَّتِهِ وَأَدْنَاهَا مَا يُتَوَقَّعُ ضَرَرُهُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ إِمَاطَةِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِهِمْ وَبَقِيَ بَيْنَ هَذَيْنِ الطَّرَفَيْنِ أَعْدَادٌ لَوْ تَكَلَّفَ الْمُجْتَهِدُ تَحْصِيلَهَا بِغَلَبَةِ الظَّنِّ وَشِدَّةِ التَّتَبُّعِ لَأَمْكَنَهُ وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ تَقَدَّمَ[2].

وَقَالَ الْمُظْهِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَبَيَانُ أَنَّ قَوْلَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) أَفْضَلُ مِنَ الشُّعَبِ الْبَاقِيَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ تَرَكَ الشُّعَبَ الْبَاقِيَةَ لَا عَنِ اعْتِقَادٍ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصٌ[3].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا هَذَا الْحَيَّ مِنْ رَبِيعَةَ، وَقَدْ حَالَتْ بَيْنَنَا، وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ، فَلَا نَخْلُصُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي شَهْرِ الْحَرَامِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَعْمَلُ بِهِ، وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا، قَالَ: **(آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الْإِيمَانِ بِاللَّهِ)**، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ، فَقَالَ: **(شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُقَيَّرِ)**[4].

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(٣٥)(١/٦٣).

(٢) النووي/شرحه على مسلم(٢/٤).

(٣) المظهري/المفاتيح في شرح المصابيح(١/٥٩).

(٤) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٧)(١/٤٦).

وَهَذَا الْحَدِيثُ كَسَابِقِيهِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ بِالْإِيمَانِ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ مُرَادَهُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَأَشْرَفُ الْأَمْرِ وَأَصْلُهُ شَهَادَةُ (**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**)، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِهِمَا.

الْحَادِي عَشَرَ: التَّوْحِيدُ يُبْدَأُ بِهِ جَوَابُ السُّؤَالِ غَالِبًا:

مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ أَفْضَلِ الْعَمَلِ وَأَنْجَاهُ عِنْدَ اللهِ؛ بَدَأَ إِجَابَتَهُ بِالتَّوْحِيدِ، وَثَنَّى بِمُقْتَضَاهُ؛ فَعَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ قَالَ: (**لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1].

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْنِينِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: (**تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ ذَا رَحِمِكَ**) فَلَمَّا أَدْبَرَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**). وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ: (**إِنْ تَمَسَّكَ بِهِ**)[2].

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا رَتَّبَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ؛ لِيُبَيِّنَ الْأَوْكَدَ فَالْأَوْكَدَ، وَالْأَهَمَّ فَالْأَهَمَّ[3]، وَقَدْ أَفْصَحَ أَنَّ أَهَمَّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ التَّوْحِيدُ.

الثَّانِي عَشَرَ: التَّوْحِيدُ أَعْظَمُ بَوَاعِثِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ:

مَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِبَذْلِ الْمُهَجِ وَالْأَمْوَالِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِبَذْلِهَا لِيَسْلَمَ التَّوْحِيدُ، وَيَزُولَ الشِّرْكُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الْأَنْفَالُ: ٣٩]، وَالْفِتْنَةُ -فِي تَأْوِيلِ السَّلَفِ- الشِّرْكُ؛ فَإِنَّهُ مُنَاهِضٌ

---

(١) حسن، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٦١٦)(٤/٣٠٨).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٣)(١/٤٣).

(٣) القرطبي/المفهم(١/٩٨).

لِلتَّوْحِيدِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**)[1].

أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِمُقَاتَلَةِ النَّاسِ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَامْتَثَلَ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَفْعَلُهُ، وَفِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الَّتِي يَجِبُ الْقِيَامُ بِهَا إِلَى غَايَةٍ هي الْإِسْلَام، يُسْتَثْنَى مِنْهُ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ إِلَى إِحْدَى غَايَتَيْنِ إِمَّا الْإِسْلَامُ أَوْ بَذْلُ الْجِزْيَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[2].

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ وَمُقْتَضَاهُ مِنَ الْعَمَلِ هُوَ السَّبَبُ الرَّئِيسُ فِي النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَالْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ، وَالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[النُّورُ: ٥٥].

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: (**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ...**)[3]، وَالْإِسْلَامُ -هُنَا- التَّوْحِيدُ وَمُقْتَضَاهُ.

الثَّالِثَ عَشَرَ: التَّوْحِيدُ حَاضِرٌ فِي جَمِيعِ أَجْزَاءِ الصَّلَاةِ:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَبْدَأُ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ ثُمَّ بِدُعَاءِ الافْتِتَاحِ؛ فَعَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاةِ قَالَ: (**وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا**

---

(١)أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٥)(١/١٤)، مسلم/صحيحه(٢٢)(١/٥١).

(٢) العراقي/طرح التثريب(٧/١٨٠).

(٣) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٧٣١)(٣/١٣٥٧).

عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، وَلا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، وَلا يَصْرِفُ عَنْ سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ وَفِي رِوَايَةِ الْمُقْرِئِ: لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)[١].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذا اسْتَفْتَحَ الصَّلاةَ، قَالَ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ بِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ لا إِلَهَ غَيْرُكَ)[٢].

ثُمَّ بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَيَخْتِمُهَا بِالتَّشَهُّدِ: فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ: (التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)[٣].

حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا، وَقَامَ وَقَامَ النَّاسُ أَعْلَنُوا التَّوْحِيدَ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنْ صَلاَتِهِ يَقُولُ بِصَوْتِهِ الْأَعْلَى: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ أَهْلُ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[٤].

أَثَرُ التَّوْحِيدِ عَلَى الْعَبْدِ:

لِلتَّوحِيدِ آثَارٌ عَلَى قَلْبِ الْعَبْدِ وَجَوَارِحِهِ، تَزِيدُ بِسَلَامَةِ التَّوْحِيدِ وَخُلُوصِهِ مِنَ الرِّيَاءِ، وَتَنْقُصُ بِمُلَابَسَتِهِ بِالشِّرْكِ، وَمُزَاوَلَةِ الْمَعَاصِي.

وَهَاكَ أَظْهَرَ آثَارِ التَّوْحِيدِ عَلَى النَّفْسِ:

أَوَّلًا: رَاحَةُ النَّفْسِ وَاطْمِئْنَانُهَا: وَرَاحَةُ النَّفْسِ وَطُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ تَحْصُلُ بِجُمْلَةٍ مِنَ الْأُمُورِ، مِنْهَا:

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(٧٧١)(١/٥٣٤).

(٢) صحيح، أخرجه: الطبراني/المعجم الكبير(١٣٣٢٤)(١٢/٣٥٣).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٢٦٥)(٨/٥٩).

(٤) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(١٥٠٦)(٢/٨٢).

١. **إِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ الْجَزَاءَ عِنْدَ اللهِ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ،** وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُسَاوِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَلَا بَيْنَ الْبَرِّ، وَالْفَاجِرِ، وَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُجْزِيٌّ عَلَى مَا عَمِلَ، فَلِلْمُحْسِنِ أَجْرٌ، وَلِلْمُسِيءِ وِزْرٌ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مُقَرَّرَةٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[الْقَلَمُ: ٣٥- ٣٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الْحَشْرُ: ٢٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزُّمَرُ: ٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص ٢٨].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلِذَلِكَ يُحِبُّ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ وَيَفْرَحُ بِتَوْبَتِهِمْ، كَمَا أَنَّ فِي ذَلِكَ أَعْظَمَ لَذَّةِ الْعَبْدِ وَسَعَادَتِهِ وَنَعِيمِهِ، فَلَيْسَ فِي الْكَائِنَاتِ شَيْءٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ يَسْكُنُ الْقَلْبُ إِلَيْهِ، وَيَطْمَئِنُّ بِهِ وَيَأْنَسُ بِهِ، وَيُتَنَعَّمُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَمَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ سُبْحَانَهُ وَحَصَلَ لَهُ بِهِ نَوْعُ مَنْفَعَةٍ وَلَذَّةٍ، فَمَضَرَّتُهُ بِذَلِكَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَنْفَعَتِهِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ الطَّعَامِ الْمَسْمُومِ اللَّذِيذِ، وَكَمَا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُهُ سُبْحَانَهُ لَفَسَدَتَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢].

فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا كَانَ فِيهِ مَعْبُودٌ غَيْرُ اللهِ تَعَالَى فَسَدَ فَسَاداً لَا يُرْجَى صَلَاحُهُ إِلَّا بِأَنْ يُخْرِجَ ذَلِكَ الْمَعْبُودَ مِنْ قَلْبِهِ، وَيَكُونَ اللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ إِلَهَهُ وَمَعْبُودَهُ الَّذِى يُحِبُّهُ وَيَرْجُوهُ، وَيَخَافُهُ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيُنِيبُ إِلَيْهِ[1].

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ فَقْرَ الْعَبْدِ إِلَى أَنْ يَعْبُدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فَيُقَاسُ بِهِ، وَلَكِنْ يُشْبِهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ حَاجَةَ الْجَسَدِ إِلَى الْغِذَاءِ وَالشَّرَابِ وَالنَّفَسِ، فَيُقَاسُ بِهَا، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا فُرُوقٌ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْعَبْدِ قَلْبُهُ وَرُوحُهُ، وَلَا صَلَاحَ لَهُ إِلَّا بِإِلَهِهِ الْحَقِّ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا بِذِكْرِهِ، وَلَا يَسْكُنُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ وَحُبِّهِ، وَهُوَ كَادِحٌ إِلَيْهِ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا صَلَاحَ لَهُ إِلَّا بِتَوْحِيدِ مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ،

(١)ابن القيم/إغاثة اللهفان(١/ ٣١).

وَلَوْ حَصَلَ لَهُ مِنَ اللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ بِغَيْرِهِ مَا حَصَلَ فَلَا يَدُومُ لَهُ ذَلِكَ، بَلْ يَنْتَقِلُ مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ، وَمِنْ شَخْصٍ إِلَى شَخْصٍ وَيَتَنَعَّمُ بِهَذَا فِي حَالٍ، وَبِهَذَا فِي حَالٍ، وَكَثِيراً مَا يَكُونُ ذَلِكَ الَّذِى يَتَنَعَّمُ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ أَسْبَابِ أَلَمِهِ وَمَضَرَّتِهِ. وَأَمَّا إِلَهُهُ الحَقُّ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِى كُلِّ حَالٍ، وَأَيْنَمَا كَانَ فَنَفْسُ الْإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِجْلَالِهِ وَذِكْرِهِ هُوَ غِذَاءُ الْإِنْسَانِ وَقُوَّتُهُ، وَصَلَاحُهُ وَقِوَامُهُ، كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ وَالْقُرْآنُ، وَشَهِدَتْ بِهِ الْفِطْرَةُ وَالْجَنَانُ، لَا كَمَا يَقُولُهُ مَنْ قَلَّ نَصِيبُهُ مِنَ التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ، وَبُخِسَ حَظُّهُ مِنَ الْإِحْسَانِ: إِنَّ عِبَادَتَهُ وَذِكْرَهُ وَشُكْرَهُ تَكْلِيفٌ وَمَشَقَّةٌ، لِمُجَرَّدِ الابْتِلَاءِ وَالامْتِحَانِ، أَوْ لِأَجْلِ مُجَرَّدِ التَّعْوِيضِ بِالثَّوَابِ الْمُنْفَصِلِ كَالْمُعَاوَضَةِ بِالْأَثْمَانِ، أَوْ لِمُجَرَّدِ رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِهَا لِيَرْتَفِعَ عَنْ دَرَجَةِ الْبَهِيمِ مِنَ الْحَيَوَانِ، كَمَا فِي مَقَالَاتِ مَنْ بُخِسَ حَظُّهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّحْمَنِ، وَقَلَّ نَصِيبُهُ مِنْ ذَوْقِ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، وَفَرِحَ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ زَبَدِ الْأَفْكَارِ وَزُبَالَةِ الْأَذْهَانِ، بَلْ عِبَادَتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ وَتَوْحِيدُهُ وَشُكْرُهُ قُرَّةُ عَيْنِ الْإِنْسَانِ، وَأَفْضَلُ لَذَّةٍ لِلرُّوحِ وَالْقَلْبِ وَالْجَنَانِ، وَأَطْيَبُ نَعِيمٍ نَالَهُ مَنْ كَانَ أَهْلاً لِهَذَا الشَّأْنِ، واللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ(١).

٢. عِلْمُ الْعَبْدِ أَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ:

اعْتِقَادُ الْعَبْدِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْإِحْسَانَ وَيُكَافِئُ عَلَيْهِ بِالْمَزِيدِ، وَيُعَوِّضُ الْمُحْسِنَ بِالْخَيْرِ عَلَى كُلِّ مَا يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَلَوْ كَانَ مَثَاقِيلَ الذَّرِّ، قَالَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزَّلْزَلَةُ: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[هُودُ: ١١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يُوسُفُ: ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يُوسُفُ: ٩٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[الْأَعْرَافُ: ١٧٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الْكَهْفُ: ٣٠].

فَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَبْدَ يَزْدَادُ فَرَحًا وَانْشِرَاحًا وَاطْمِئْنَانًا وَحِرْصاً عَلَى الْعِبَادَةِ، وَإِخْلَاصاً للهِ

---

(١) ابن القيم/إغاثة اللهفان(١/ ٣١).

فِيهَا إِذَا عَرَفَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، وَأَنَّ اللهَ لَا يُؤَخِّرُ أَجْرَ الصَّالِحِينَ، وَأَنَّهُ يَكْتُبُ آثَارَهُمْ، وَحَرَكَاتِهِمْ، وَسَكَنَاتِهِمْ، وَنَفَقَاتِهِمْ، وَيُكَافِئُهُمْ عَلَى مَا صَلُحَ مِنْهَا وَخَلُصَ بِالْمَزِيدِ؛ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ، ثُمَّ يَزِيدُ فَوْقَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

٣.عِلْمُ الْعَبْدِ أَنَّ الْأُمُورَ مُقَدَّرَةٌ قَبْلَ الْخَلْقِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ:

سَبْقُ الْمَقَادِيرِ حَقِيقَةٌ لَا مِرْيَةَ فِيهَا، فَإِذَا صَدَّقَ بِهَا الْمَرْءُ؛ وَرَّثَتْهُ طُمَأْنِينَةً وَارْتِيَاحاً، وَإِنَّ عِلْمَهُ بِالْمَقْدُورِ مِنْ جِهَةِ تَعَلُّقِهِ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَحْضُ حَقٍّ، وَعَدْلٍ، وَحِكْمَةٍ، وَمَصْلَحَةٍ؛ يَمْنَحُهُ الرِّضَا بِالْمَقْدُورِ؛ فَلَا يُحِبُّ تَقْدِيمَ مَا أُخِّرَ، وَلَا تَأْخِيرَ مَا قُدِّمَ، وَلَا يَحْزَنُ بِمَا أَصَابَهُ أَوْ فَاتَهُ، وَلَا يَفْرَحُ بِمَا آتَاهُ، وَيَتَشَوَّفُ دَائِماً إِلَى الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبُلُوغِ الرِّضَا عِنْدَ مَوْلَاهُ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **(كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)**[١].

وَأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، فعَنْ أَبِي حَفْصَةَ، قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **(إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)** يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **(مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي)**[٢].

٤. عِلْمُ الْعَبْدِ أَنَّ الرِّزْقَ مُقَدَّرٌ، وَأَنَّهُ لَا يَسُوقُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ:

إِنَّ إِيمَانَ الْعَبْدِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَأَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْقَدَرِ الْمُبْرَمِ الَّذِي لَا يَتَبَدَّلُ بِتَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، تَمْنَحُهُ الطُّمَأْنِينَةَ وَالسُّكُونَ، وَعَدَمَ التَّنَافُسِ عَلَى أَسْبَابِ الرِّزْقِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يُقْبَضُ حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مَا قُدِّرَ لَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(٢٦٥٣)(٤/٢٠٤٤).

(٢) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(٤/٢٢٥)(٤٧٠٠).

دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هُودُ: ٦].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلُكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**)[١].

ثَانِيًا: تَوَاضُعُ النَّفْسِ وَانْكِسَارُهَا:

إِنَّ اعْتِقَادَ الْعَبْدِ فِي اللهِ أَنَّهُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ، الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ، الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ الرَّافِعُ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، وَالظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَالْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، سَمِيعٌ بَصِيرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ يُورِثُ النَّفْسَ خَشْيَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ، تَحْمِلُهَا عَلَى الْخُضُوعِ وَالانْقِيَادِ، وَالذُّلِّ وَالانْكِسَارِ، وَالتَّوَاضُعِ لِعِبَادِهِ، وَعَدَمِ الاسْتِطَالَةِ وَالتَّعَاظُمِ عَلَيْهِمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فَاطِرُ: ٢٨].

ثَالِثًا: التَّصْدِيقُ بِوَعْدِ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ:

إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَكَفَّلَ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ بِالنَّصْرِ وَالْعِزَّةِ وَالشَّرَفِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النُّورُ: ٥٥].

وَهَذَا نَبِيُّ اللهِ هُودٌ ﵇ قَدْ وَثِقَ غَايَةَ الْوُثُوقِ، أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ مِنْهُمْ، وَلَا مِنْ آلِهَتِهِمْ أَذًى، إِلَّا مَا قَدَّرَهُ اللهُ وَأَرَادَهُ؛ فَقَالَ: ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا**﴾، أَيِ: اطْلُبُوا لِيَ الضَّرَرَ كُلُّكُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ تَتَمَكَّنُونَ بِهَا مِنِّي ﴿**ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ**﴾ أَيْ لَا تُمْهِلُونِي ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ**﴾ أَيِ اعْتَمَدْتُ فِي أَمْرِي كُلِّهِ عَلَى اللهِ ﴿**رَبِّي وَرَبِّكُمْ**﴾

---

(١) صحيح، أخرجه: ابن أبي شيبة/مصنفه(٣٤٣٣٢)(٧/٧٩).

[هُودُ: ٥٤-٥٦]، أَيْ: هُوَ خَالِقُ الْجَمِيعِ وَمُدَبِّرُنَا وَإِيَّاكُمْ[١].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَمَّا عَلِمَ نَبِيُّ اللَّهِ هُودٌ ﷺ أَنَّ رَبَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَنْعِهِ وَعَطَائِهِ، وَعَافِيَتِهِ وَبَلَائِهِ، وَتَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِهِ، لَا يَخْرُجُ فِي ذَلِكَ عَنْ مُوجِبِ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، الَّذِي يَقْتَضِيهِ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ، مِنَ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، وَوَضْعِ الثَّوَابِ مَوَاضِعَهُ، وَالْعُقُوبَةِ فِي مَوْضِعِهَا اللَّائِقِ بِهَا، وَوَضْعِ التَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي أَمَاكِنِهِ وَمَحَالِّهِ اللَّائِقَةِ بِهِ، بِحَيْثُ يَسْتَحِقُّ عَلَى ذَلِكَ كَمَالَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ، أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ وَالْعِرْفَانَ، إِذْ نَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَانٍ ثَابِتٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ خَائِفٍ بَلْ مُتَجَرِّدٍ لِلَّهِ **﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [هُودُ: ٥٤-٥٦][٢].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَدَارِجِ السَّالِكِينَ: فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ، وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ وَاثِقٌ مِمَّا قَالَهُ جَازِمٌ بِهِ، قَدْ أَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَمِمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ، مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ: أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسَلِّطِهِمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ - إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ -: أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهَا.

ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ، وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَضْعَفُ وَأَعْجَزُ وَأَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّكُمْ لَوْ رُمْتُمُوهُ لَانْقَلَبْتُمْ بِغَيْظِكُمْ مَكْبُوتِينَ مَخْذُولِينَ.

ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُ أَحْسَنَ تَقْرِيرٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى وَرَبَّهُمْ، الَّذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ: هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ، الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَآمَنَ بِهِ،

---

(١) السعدي/ تفسيره (ص ٣٨٤).

(٢) ابن القيم/ الداء والدواء (ص ٢٠٧).

وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ، وَلَا يَكُونُ مَعَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ - فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ - يَمْنَعُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ.

وَتَحْتَ هَذَا الْخِطَابِ أَنَّ مِنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ أَنْ يَنْتَقِمَ مِمَّنْ خَرَجَ عَنْهُ وَعَمِلَ بِخِلَافِهِ، وَيُنْزِلَ بِهِ بَأْسَهُ، فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي عَلَيْهِ الرَّبُّ تَعَالَى، وَمِنْهُ انْتِقَامُهُ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْإِجْرَامِ، وَنَصْرُهُ أَوْلِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِهِمْ، وَيَسْتَخْلِفُ قَوْمًا غَيْرَهُمْ، وَلَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ شَيْئًا، وَأَنَّهُ الْقَائِمُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حِفْظًا وَرِعَايَةً وَتَدْبِيرًا وَإِحْصَاءً[1].

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾[يُونُس: ٧١].

وَكَذَلِكَ قَالَ عَن هُودٍ لَمَّا قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يُونُس: ٤٥-٥٦].

فَنُوحٌ عليه السلام يَقُولُ: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس:٧١] فَدَعَاهُمْ إِذَا اسْتَعْظَمُوا مَا يَفْعَلُهُ كَارِهِينَ لَهُ أَنْ يَجْتَمِعُوا ثُمَّ يَفْعَلُوا بِهِ مَا يُرِيدُونَهُ مِنَ الْإِهْلَاكِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فَلَوْلَا أَنَّ تَحْقِيقَهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَهُوَ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللهِ يَدْفَعُ مَا تَحَدَّاهُمْ بِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ تعجيزًا لَهُمْ مِنْ مُنَاجَزَتِهِ لَكَانَ قَدْ طَلَبَ مِنْهُم أَنْ يُهْلِكُوهُ وَهَذَا لَا يَجُوزُ وَهَذَا طَلَبُ تَعْجِيزٍ لَهُم، فَدلَّ عَلَى أَنَّهُ بِتَوَكُّلِهِ عَلَى اللهِ يُعْجِزُهُمْ عَمَّا تَحَدَّاهُمْ بِهِ .

وَكَذَلِكَ هُوَ يُشْهِدُ اللهَ وَإِيَّاهُمْ أَنَّهُ بَرِيء مِمَّا يُشْرِكُونَهُ بِاللهِ ثُمَّ يَتَحَدَّاهُمْ وَيُعْجِزُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ بَيَّنَ أَنَّهُ تَوَكَّل عَلَى مَنْ أَخَذَ بِنَوَاصِي الْأَنْفُسِ وَبِسَائِرِ الدَّوَابِّ، فَهُوَ يَدْفَعُكُمْ عَنِّي؛

---

(١) ابن القيم/مدارج السالكين(٣/٤٣١).

لِأَنِّي مُتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ وُجُودُ التَّوَكُّلِ كَعَدَمِهِ فِي هَذَا لَكَانَ قَدْ أَغْرَاهُمْ بِالْإِيقَاعِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِكْرِ تَوَكُّلِهِ فَائِدَةٌ إِذْ كَانَ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ تَوَكَّلَ وَمَنْ لَمْ يَتَوَكَّلْ فِي وُصُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِ وَهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ وَأَقْوَى مِنْهُ؛ فَكَانُوا يُهْلِكُونَهُ لَوْلَا قُوَّتُهُ بِتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ التَّوَكُّلَ إِنْ لَمْ يُعْطِهِ قُوَّةً فَهُمْ أَقْوَى مِنْهُ وَهُوَ لَو قَالَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَايَ وَنَاصِرِي وَنَحْوَ ذَلِكَ لَعُلِمَ أَنَّهُ قَالَهُ مُخْبِرًا، فَاللَّهُ يَدْفَعُهُمْ عَنْهُ وَإِنَّمَا يَدْفَعُهُمْ لِإِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، وَلِأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ رُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَإِذَا كَانَ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى يَدْفَعُ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[الْحَجُّ: ٣٨]، عُلِمَ أَنَّ الْعَبْدَ تَقُومُ بِهِ أَعْمَالٌ بَاطِنَةٌ وَظَاهِرَةٌ يَجْلِبُ بِهَا الْمَنْفَعَةَ وَيَدْفَعُ بِهَا الْمضرَّةَ فَالتَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ وَعُلِمَ أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَقْدُورَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ لَيْسَ مُعَلَّقًا بِالْأَسْبَابِ بَلْ يَحْصُلُ بِدُونِهَا فَهُوَ غَلَطٌ[1].

رَابِعًا: تَفْرِيجُ الْكُرُبَاتِ:

التَّوَسُّلُ بِالتَّوْحِيدِ هُوَ أَقْوَى الْوَسَائِلِ فِي قَبُولِ الدُّعَاءِ، وَإِجَابَةِ الْمَسْأَلَةِ، وَأَسْرَعِهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٨٧-٨٨].

إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَّجَ عَنْ يُونُسَ ﷺ كُرْبَتَهُ بِدُعَائِهِ وَتَوَسُّلِهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَاعْتِرَافِهِ أَنَّهُ تَعَجَّلَ فِي أَمْرٍ أَحَبَّ اللهُ لَهُ الْأَنَاةَ فِيهِ، فَعَجَّلَ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِذَلِكَ الْفَرَجَ وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ، وَرَدَّ لَهُ الْعَافِيَةَ مِنْ بَعْدِ الضَّعْفِ.

سُئِلَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا السَّبَبُ فِي أَنَّ الْفَرَجَ يَأْتِي عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ بِالْخَلْقِ؟ وَمَا الْحِيلَةُ فِي صَرْفِ الْقَلْبِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِهِمْ وَتَعَلُّقِهِ بِاللَّهِ ﷻ؟ فَقَالَ سَبَبُ هَذَا تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، فَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ فَلَا يَسْتَقِلُّ شَيْءٌ سِوَاهُ بِإِحْدَاثِ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ إِذَا قَدَّرَ شَيْئًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ شَرِيكٍ مُعَاوِنٍ وَضِدٍّ مَعْرُوفٍ، فَإِذَا طُلِبَ مِمَّا سِوَاهُ إِحْدَاثُ أَمْرٍ

---

(١) ابن تيمية/ جامع الرسائل(١/ ٩٦وما بعدها).

مِنَ الْأُمُورِ طُلِبَ مِنْهُمَا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ وَلَا يَقْدِرُ وَحْدَهُ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ قَالَ: فَالرَّاجِي مَخْلُوقًا طَالِبٌ بِقَلْبِهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَخْلُوقِ وَذَلِكَ الْمَخْلُوقُ عَاجِزٌ عَنْهُ.

ثُمَّ هَذَا مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ ﷻ، فَمِنْ كَمَالِ نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ أَنْ يَمْنَعَ تَحْصِيلَ مَطَالِبِهِمْ بِالشِّرْكِ حَتَّى يَصْرِفَ قُلُوبَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، ثُمَّ إِنْ وَحَّدَهُ الْعَبْدُ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ حَصَلَتْ لَهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. فَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ مِنَ الشِّدَّةِ وَالضَّرَرِ مَا يُلْجِئُهُمْ إِلَى تَوْحِيدِهِ فَيَدْعُونَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَيَرْجُونَهُ وَلَا يَرْجُونَ أَحَدًا سِوَاهُ، وَتَتَعَلَّقُ قُلُوبُهُمْ بِهِ لَا بِغَيْرِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَحَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، وَذَوْقِ طَعْمِهِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ، مَا هُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ مِنْ زَوَالِ الْمَرَضِ وَالْخَوْفِ وَالْجَدْبِ، أَوْ حُصُولِ الْيُسْرِ، أَوْ زَوَالِ الْعُسْرِ فِي الْمَعِيشَةِ.

فَإِنَّ ذَلِكَ لَذَّةٌ بَدَنِيَّةٌ وَنِعْمَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ قَدْ يَحْصُلُ مِنْهَا لِلْكَافِرِ أَعْظَمُ مِمَّا يَحْصُلُ لِلْمُؤْمِنِ. وَأَمَّا مَا يَحْصُلُ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ وَالدِّينِ فَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِمَقَالٍ، أَوْ يَسْتَحْضِرَ تَفْصِيلَهُ بَالٌ، وَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ ذَلِكَ نَصِيبٌ بِقَدْرِ إِيمَانِهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: يَا ابْنَ آدَمَ لَقَدْ بُورِكَ لَكَ فِي حَاجَةٍ أَكْثَرْتَ فِيهَا مِنْ قَرْعِ بَابِ سَيِّدِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ: إِنَّهُ لَيَكُونُ لِي إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ وَأَدْعُو فَيَفْتَحُ لِي مِنْ لَذِيذِ مَعْرِفَتِهِ وَحَلَاوَةِ مُنَاجَاتِهِ مَا لَا أُحِبُّ مَعَهُ أَنْ يُعَجِّلَ قَضَاءَ حَاجَتِي خَشْيَةَ أَنْ تَنْصَرِفَ نَفْسِي عَنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تُرِيدُ إِلَّا حَظَّهَا، فَإِذَا قُضِيَ انْصَرَفَتْ.

وَفِي بَعْضِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: يَا ابْنَ آدَمَ الْبَلَاءُ يَجْمَعُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَالْعَافِيَةُ تَجْمَعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ(١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهِيَ مَفْزَعُ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، فَإِنَّ أَعْدَاءَهُ إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَزِعُوا إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَتَبَرَّءُوا مِنْ شِرْكِهِمْ، وَدَعَوْهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. وَأَمَّا أَوْلِيَاؤُهُ فَهِيَ مَفْزَعُهُمْ فِي شَدَائِدِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَلِهَذَا كَانَتْ دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرَضِينَ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ".

---

(١) انظر: ابن تيمية/مجموع الفتاوى(١٠/٣٣١)، ابن مُفلح/الآداب الشرعية(١/١٤٠).

وَدَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ "لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ".

وَعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ رَاعَهُ شَيْءٌ، قَالَ: **(اللهُ اللهُ رَبِّي، لَا شَرِيكَ لَهُ)**(١).

وَقَالَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ: **(اللَّهُ، اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)**(٢).

وَعَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَاصٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: **(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ)**(٣).

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)**(٤).

فَالتَّوْحِيدُ مَلْجَأُ الطَّالِبِينَ، وَمَفْزَعُ الْهَارِبِينَ، وَنَجَاةُ الْمَكْرُوبِينَ، وَغِيَاثُ الْمَلْهُوفِينَ، وَحَقِيقَتُهُ إِفْرَادُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، وَالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ(٥).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: التَّوْحِيدُ مَفْزَعُ أَعْدَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فَأَمَّا أَعْدَاؤُهُ فَيُنَجِّيهِمْ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا وَشَدَائِدِهَا ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هم يشركُونَ﴾ وَأَمَّا أَوْلِيَاؤُهُ فَيُنَجِّيهِمْ بِهِ مِنْ كُرُبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وَشَدَائِدِهَا وَلذَلِك فَزِعَ إِلَيْهِ يُونُس عليه السلام فَنَجَّاهُ اللهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَفَزِعَ إِلَيْهِ أَتبَاعُ الرُّسُلِ فَنَجَوْا بِهِ مِمَّا عُذِّبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي الدُّنْيَا وَمَا أُعِدَّ لَهُم فِي الْآخِرَة، وَلَمَّا فَزِعَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ عِنْد مُعَايَنَةِ الْهَلَاكِ وَإِدْرَاكِ الْغَرَقِ لَهُ لم يَنْفَعْهُ لِأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ لَا يُقْبَلُ هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَا دُفِعَتْ شَدَائِدُ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيدِ، وَلذَلِك كَانَ دُعَاءُ الْكَرْبِ بِالتَّوْحِيدِ، وَدَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي مَا دَعَا بهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ بِالتَّوْحِيدِ، فَلَا يُلْقِي فِي الْكُرَبِ الْعِظَامِ إِلَّا الشِّرْكُ، وَلَا يُنَجِّي مِنْهَا

---

(١) صحيح، أخرجه: النسائي/السنن الكبرى(١٠٤١٨)(٢٤٣/٩).

(٢) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/سننه(٣٨٨٢)(١٢٧٧/٢).

(٣) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٥٠٥)(٥٢٩/٥).

(٤) حسن، أخرجه: أبو داود/سننه(٥٠٩٠)(٣٢٤/٤).

(٥) ابن القيم/إغاثة اللهفان(١٣٥/٢).

إِلَّا التَّوْحِيدُ، فَهُوَ مَفْزَعُ الْخَلِيقَةِ، وَمَلْجَؤُهَا، وَحِصْنُهَا، وَغِيَاثُهَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ[1].

خَامِساً: تَحَرُّرُ الْمُؤْمِنِ مِنْ رِقِّ الْعَبِيدِ:

مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ عَلَى الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنَّهُ يُخَلِّصُ الْقَلْبَ مِنْ عَلَائِقِ الْعَبِيدِ؛ لِيَكُونَ كُلُّهُ تَحْتَ سُلْطَانِ التَّوْحِيدِ، مُزْهِراً بِأَنْوَارِهِ، وَيَجْعَلُ الْجَوَارِحَ خَاضِعَةً لِعَظَمَةِ اللهِ، ذَلِيلَةً، ضَرِيرَةً أَمَامَ عِزَّتِهِ سُبْحَانَهُ، مُنْقَادَةً بِطَوَاعِيَةٍ وَرِضًا، لِأَوَامِرِهِ مُحَاذِرَةً مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى مَسَاخِطِهِ، لَا تُرْضِي أَحَداً فِي سَخَطِ اللهِ، وَلَا تُطِيعُ أَحَداً فِي مَعْصِيَتِهِ، وَلَوْ كَانَ أَباً أَوْ أُمّاً أَوْ أَخاً، أَوْ عَشِيرَةً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الْمُمْتَحَنَةُ: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٨٨- ٨٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[آلُ عِمْرَانَ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الْمُجَادِلَةُ: ٢٢].

وَعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ وَفِيهَا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا

---

(١) ابن القيم/الفوائد(ص٥٣).

مَعْرُوفًا﴾ [لُقمَانُ: ١٥][(١)].

وَزَادَ فِي حَدِيثِ شُعْبَةَ: قَالَ فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا بِعَصًا، ثُمَّ أَوْجَرُوهَا، وَفِي حَدِيثِهِ أَيْضًا: فَضَرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدٍ، فَفَزَرَهُ وَكَانَ أَنْفُ سَعْدٍ مَفْزُورًا[(٢)].

وَعَنْ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: وَجَّهَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ جَيْشًا إِلَى الرُّومِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ حُذَافَةَ ﷺ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسَرَهُ الرُّومُ فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَنَصَّرَ وَأُشْرِكُكَ فِي مُلْكِي وَسُلْطَانِي؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: " لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ، وَجَمِيعَ مَا مَلَكَتْهُ الْعَرَبُ - وَفِي رِوَايَةِ الْقَطَّانِ: وَجَمِيعَ مَمْلَكَةِ الْعَرَبِ - عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَرْفَةَ عَيْنٍ، مَا فَعَلْتُ "، قَالَ: إِذًا أَقْتُلُكَ، قَالَ: "أَنْتَ وَذَاكَ"، قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ، وَقَالَ لِلرُّمَاةِ: ارْمُوهُ قَرِيبًا مِنْ يَدَيْهِ قَرِيبًا مِنْ رِجْلَيْهِ وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَأْبَى، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُنْزِلَ، ثُمَّ دَعَا بِقِدْرٍ وَصَبَّ فِيهَا مَاءً حَتَّى احْتَرَقَتْ، ثُمَّ دَعَا بِأَسِيرَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا فَأُلْقِيَ فِيهَا وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ وَهُوَ يَأْبَى، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَى فِيهَا، فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ بَكَى فَظَنَّ أَنَّهُ رَجَعَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ فَأَبَى، قَالَ: فَمَا أَبْكَاكَ؟ قَالَ: "أَبْكَانِي أَنِّي قُلْتُ هي نَفْسٌ وَاحِدَةٌ تُلْقَى هَذِهِ السَّاعَةَ فِي هَذَا الْقِدْرِ فَتَذْهَبُ، فَكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ بِعَدَدِ كُلِّ شَعَرَةٍ فِي جَسَدِي نَفْسٌ تَلْقَى هَذَا فِي اللهِ ﷻ"، قَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي وَأُخَلِّيَ عَنْكَ؟ قَالَ عَبْدُ اللهِ: "وَعَنْ جَمِيعِ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ؟" قَالَ: وَعَنْ جَمِيعِ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: "فَقُلْتُ فِي نَفْسِي عَدُوٌّ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ أُقَبِّلُ رَأْسَهُ ويُخَلِّي عَنِّي وَعَنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ لَا أُبَالِي قال فَدَنَا مِنْهُ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ"، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْأُسَارَى، فَقَدِمَ بِهِمْ عَلَى عُمَرَ فَأُخْبِرَ عُمَرُ بِخَبَرِهِ، فَقَالَ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ، وَأَنَا أَبْدَأُ فَقَامَ عُمَرُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ"[(٣)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: "كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٧٤٨)(٤/١٨٧٧).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٧٤٨)(٤/١٨٧٨).

(٣) شعب الإيمان(١٥٢٢)(٣/١٧٩).

أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ"[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ» حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالهَدَةِ بَيْنَ عَسْفَانَ، وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمُ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فَقَالُوا: تَمْرُ يَثْرِبَ، فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا حَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى مَوْضِعٍ فَأَحَاطَ بِهِمُ القَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمُ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ: أَنْ لاَ نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا القَوْمُ: أَمَّا أَنَا فَلاَ أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ، فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ عَلَى العَهْدِ وَالمِيثَاقِ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ، وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ، فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ، وَاللَّهِ لاَ أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ لِي بِهَؤُلاَءِ أُسْوَةً، يُرِيدُ القَتْلَى، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَانْطُلِقَ بِخُبَيْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ بَنُو الحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الحَارِثِ مُوسًى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالمُوسَى بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ، فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلاَ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

---

(١) حسن، أخرجه: ابن ماجه/سننه(١٥٠)(١/٥٣).

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سِرْوَعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلاَةَ، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ – حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ – أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلًا عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ، فَبَعَثَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا[1].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا وَارَى إِبْطُ بِلَالٍ)**[2].

وَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: **(كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)**[3].

سَادِسَاً: إِنَارَةُ الْقَلْبِ، وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ:

إِذَا طَرَقَتْ شَمْسُ التَّوْحِيدِ قَلْبَ الْعَبْدِ، وَخَالَطَتْ حَقِيقَتُهُ بَشَاشَةَ الْقَلْبِ، وَرَّثَتْهُ فَرْحَةً وَانْشِرَاحاً، وَنُوراً وَازْدِهَاراً تَجْعَلُهُ يُدْرِكُ مَعَ هَذَا حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَهَنَاءَةَ الْحَيَاةِ، فَيَكُونُ أَشْبَهَ بِالْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أَرْضٍ مَيْتَةٍ، فَتَحْيَا بِهِ وَتُنْبِتُ الْعُشْبَ وَالْكَلَأَ، فَتَبْدُو الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً جَمِيلَةً، فَكَذَا الْقَلْبُ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ غَيْثُ التَّوْحِيدِ وَمَاؤُهُ الْقَرَاحُ، وَنَفَحَاتُهُ الزَّكِيَّةُ تَجْعَلُهُ قَلْباً أَبْيَضَ كَالصَّفَا مَلِيئاً بِالْبَصَائِرِ وَالْأَنْوَارِ.

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٩٨٩)(٥/٧٩).

(٢) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/سننه(١٥١)(١/٥٤).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٦١٢)(٤/٢٠١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَى: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الْأَنْفَالُ: ٢٤].

وَعَنِ الْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»[1].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[2].

سَابِعاً: عِصْمَةُ النَّفْسِ مِنَ الْقَتْلِ:

إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ أَنْ يَكُونَ حَالُهُ فِي النَّاسِ وَلَاءً وَبَرَاءً، سِلْماً وَحَرْباً؛ بِنَاءً عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَمَنْ أَقَرَّ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، عَالِماً بِهَا مُصَدِّقاً؛ كَانَ آمِناً فِي نَفْسِهِ، وَأَهْلِهِ، وَمَالِهِ، وَمَنْ أَنْكَرَ؛ كَانَ كَافِراً ظَالِماً مَهْدُوراً دَمُهُ وَمَالُهُ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[3].

ثَامِناً: بَذْلُ النَّفْسِ وَالْمَالِ نُصْرَةً لِلدِّينِ:

إِذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ وَتَحَقَّقَ التَّوْحِيدُ فِي الْجَنَانِ يَبْلُغُ السَّائِرُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ الْيَقَظَةِ فَيَحْزَنُ عَلَى أَيَّامٍ مَضَتْ حُرِمَ فِيهَا هَذِهِ اللَّذَّةَ وَفَاتَتْهُ فِيهَا هَذِهِ النِّعْمَةُ وَيَجِدُ فِي صَدْرِهِ عَزِيمَةً أَنْ يَسْتَقْبِلَ مَا بَقِيَ

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(٣٤)(١/٦٢).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(١٦)(١/١٢).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٥)(١/١٤)، ومسلم/صحيحه(٢٢)(١/٥٣).

مِنْ عُمُرِهِ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ وَثَبَاتٍ وَإِصْرَارٍ عَلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَحَبْلِهِ الْمَتِينِ وَنُورِهِ الْمُبِينِ، وَلَوِ اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَبْذُلَ النَّفْسَ وَالْأَهْلَ وَالْمَالَ كَأُولَائِكُمُ الْأَشَاوِسَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الْحَشْرُ: ٨].

وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الْحَشْرُ: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَةُ: ١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصَّفُّ: ١٠-١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الْحُجُرَاتُ: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٠٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٤].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي، وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ ﷺ: (**إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا**)، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ ﷺ: (**لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا**)، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**)، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**)، قَالَ: - يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: - يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: (**نَعَمْ**)، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**) قَالَ: لَا وَاللهِ

يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: **(فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا)**، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ(١).

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: **(قَسَمْتُهُ لَكَ)**، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَقَالَ: **(إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ)**، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(أَهُوَ هُوَ؟)** قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **(صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ)**، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: **(اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ)**(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ)**(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ**

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٩٠١)(٣/١٥٠٩).

(٢) صحيح، أخرجه: النسائي/صحيحه(١٩٥٣)(٤/٦٠).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٧٩٧)(٤/١٧).

مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»[1].

ثَامِناً: مَحَبَّةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَبُغْضُ أَهْلِ الْكُفْرَانِ:

إِذَا تَحَقَّقَ التَّوْحِيدُ كَانَ حُبُّ اللهِ تَعَالَى فِي الْقَلْبِ فَوْقَ حُبِّ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٦٥]، فَيَبْلُغُ الْعَبْدُ مَنْزِلَةً يُؤْثِرُ فِيهَا حُبَّ اللهِ تَعَالَى وَحُبَّ طَاعَتِهِ، وَحُبَّ أَوْلِيَائِهِ، وَبُغْضَ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَبُغْضَ أَعْدَائِهِ، وَيَكُون ذَلِيلاً عَلَى أَوْلِيَائِهِ، عَزِيزاً عَلَى أَعْدَائِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الْمُجَادِلَةُ: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الْمُمْتَحَنَةُ: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الْمُمْتَحَنَةُ: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٨٧٦)(٣/١٤٩٥).

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحَشْرُ: ٩].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (أَتَدْرُونَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟) قَالَ قَائِلٌ: الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ، وَقَالَ قَائِلٌ: الْجِهَادُ، قَالَ: (إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ)[1].

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: (أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ؟)، قَالُوا: الصَّلَاةُ، قَالَ: (حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا؟) قَالُوا: الزَّكَاةُ، قَالَ: (حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا؟) قَالُوا: صِيَامُ رَمَضَانَ. قَالَ: (حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ؟) قَالُوا: الْحَجُّ، قَالَ: (حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ؟) قَالُوا: الْجِهَادُ، قَالَ: (حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ؟) قَالَ: (إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ)[2].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)[3].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ لِي: (عَادِ فِي اللهِ، وَوَالِ فِي اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ إِلَّا بِذَاكَ، وَلَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ)[4].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (يَا عَبْدَ اللهِ، أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ؟) قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: (الْوَلَايَةُ فِي اللهِ، الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ، يَا عَبْدَ اللهِ، أَتَدْرِي أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟) قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ أَعْلَمُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ، وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ، وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى سِتِّهِ)[5].

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (لَا يَحِقُّ الْعَبْدُ حَقَّ صَرِيحِ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلَّهِ، وَيُبْغِضَ لِلَّهِ، فَإِذَا أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَحَقَّ الْوَلَاءَ مِنَ اللهِ، وَإِنَّ

---

(١) حسن لغيره، أخرجه: أحمد/مسنده(٢١٣٠٣)(٣٥/٢٢٩).

(٢) حسن بشواهده، أخرجه: أحمد/مسنده(١٨٥٢٤)(٣٠/٤٨٨).

(٣) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(٤٦٨١)(٤/٢٢٠).

(٤) أخرجه: البيهقي/شعب الإيمان(٩٠٦٩)(١٢/٧٦).

(٥) ضعيف، أخرجه: البيهقي/شعب الإيمان(٩٠٦٤)(١٢/٧٣).

أَوْلِيَائِي مِنْ عِبَادِي، وَأَحِبَّائِي مِنْ خَلْقِي الَّذِينَ يُذْكَرُونَ بِذِكْرِي، وَأُذْكَرُ بِذِكْرِهِمْ)[1].

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ وَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ مِنْهَا لَا يَخْلُو مِنْ مَقَالٍ؛ لَكِنَّهَا بِمَجْمُوعِهَا يُعْلَمُ أَنَّ لِهَذَا الْحَدِيثِ أَصْلاً، واللهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَنَيِّفٌ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ، فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ، ثُمَّ قَالَ: **(اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا)**، قَالَ: فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّهُ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الْأَنْفَالُ: ٩]، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ وَالْتَقَوْا هَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَلِيًّا، فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ وَالْإِخْوَانِ، فَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمُ الْفِدْيَةَ، فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَا مِنْهُمْ قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَيَكُونُوا لَنَا عَضُدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟)** قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنِي مِنْ فُلَانٍ قَرِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنَ حَمْزَةَ مِنْ أَخِيهِ فُلَانٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ، هَؤُلَاءِ صَنَادِيدُهُمْ وَأَئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ، فَهَوِيَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَأَخَذَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ عُمَرُ: غَدَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ وَأَبُو بَكْرٍ يَبْكِيَانِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكُمْ مِنَ الْفِدَاءِ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ)** وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا**﴾[الْأَنْفَالُ: ٦٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[الْأَنْفَالُ: ٦٨]، ثُمَّ أَحَلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ

---

(١) ضعيف، أخرجه: أحمد/مسنده(١٥٥٤٩)(٣١٧/٢٤).

مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَهُشِّمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آلِ عِمْرَانَ: ١٦٥] بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ"[١].

وَعَنْ أَنَسٍ ؓ أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمْنَا السُّنَّةَ وَالْإِسْلَامَ قَالَ فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَقَالَ: (هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)[٢]، وَسَيَّرَهُ إِلَى الشَّامِ أَمِيراً، فَكَانَ فَتْحُ أَكْثَرِ الشَّامِ عَلَى يَدِهِ وَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[الْمُجَادِلَةُ: ٢٢].

وَهُوَ فِيمَا أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، عَنِ ابْنِ شَوْذَبٍ، قَالَ: "جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَةَ يَتَصَدَّى لِأَبِي عُبَيْدَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِيدُ عَنْهُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ، قَصَدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾"[٣].

التَّوْحِيدُ فِيهِ سَلَامَةٌ لِلنَّفْسِ مِنَ التَّشَتُّتِ وَالتَّمَزُّقِ، فَالْمُوَحِّدُ تَكُونُ نَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةٌ قَدْ تَمَيَّزَتْ فِي الْحَيَاةِ وِجْهَتِهِ، وَتَوَحَّدَتْ غَايَتُهُ؛ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ يَتَّجِهُ إِلَيْهِ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَيَدْعُوهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، بِخِلَافِ الْمُشْرِكِ الَّذِي تَشَتَّتَ قَلْبُهُ بَيْنَ الْآلِهَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[يُوسُفُ: ٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هَذَا الَّذِي يَخْدُمُ جَمَاعَةً شُرَكَاءَ أَخْلَاقُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ وَنِيَّاتُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ، لَا يَلْقَاهُ رَجُلٌ إِلَّا جَرَّهُ وَاسْتَخْدَمَهُ، فَهُوَ يَلْقَى مِنْهُمُ الْعَنَاءَ وَالنَّصَبَ وَالتَّعَبَ الْعَظِيمَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَا يُرْضِي وَاحِدًا مِنْهُمْ بِخِدْمَتِهِ لِكَثْرَةِ الْحُقُوقِ فِي رَقَبَتِهِ، وَالَّذِي يَخْدُمُ وَاحِدًا لَا يُنَازِعُهُ فِيهِ أَحَدٌ، إِذَا أَطَاعَهُ وَحْدَهُ عَرَفَ ذَلِكَ لَهُ، وَإِنْ أَخْطَأَ صَفَحَ عن

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة(٣٦٦٨٤)(٧/٣٥٧).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(٢٤١٩)(٤/١٨٨١).

(٣) جيد، أخرجه: الطبراني/المعجم الكبير(٣٦٠)(١/١٥٤).

خطأه، فَأَيُّهمَا أَقَلُّ تَعبًا أَوْ عَلَى هُدًى مُسْتَقِيم[1].

وَهَكَذَا الْمُؤمِنُ يَعْبُدُ إِلَهاً وَاحِداً، وَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ آلِهَةً عَدِيدَةً هَذَا يَأْخُذُهُ إِلَى الْيَمِينِ، وَهَذَا يَأْخُذُهُ إِلَى الْيَسَارِ وَهُوَ بَيْنَهُمْ مُشَتَّتٌ لَا قَرَارَ لَهُ.

وَالتَّوْحِيدُ سَبِيلُ الْعِزِّ وَالرِّفْعَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٣٩].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلِلْعَبْدِ مِنَ الْعُلُوِّ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٨]، فَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ، فَإِذَا فَاتَهُ حَظٌّ مِنَ الْعُلُوِّ وَالْعِزَّةِ، فَفِي مُقَابَلَةِ مَا فَاتَهُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ عِلْماً وَعَمَلاً، ظَاهِراً وَبَاطِناً[2].

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ؛ فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الْكَافِرُونَ: ٣].

الرَّابِعَةُ: الْحِكْمَةُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

السَّابِعَةُ: الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ: أَنَّ عِبَادَةَ اللهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ؛ فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٥٦].

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

---

(١) القرطبي/تفسيره(١٥/٢٥٣).

(٢) ابن القيم/إغاثة اللهفان(٢/٩٢٦).

التَّاسِعَةُ: عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ؛ أَوَّلُهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

الْعَاشِرَةُ: الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِيهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ مَسْأَلَةً، بَدَأَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٢٢]، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٩]، وَنَبَّهَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٩].

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: آيَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى: آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشَرَةِ؛ بَدَأَهَا اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النِّسَاءُ: ٣٦].

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللهِ عَلَيْنَا.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: الْخَوْفُ مِنَ الِاتِّكَالِ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُ الْمَسْؤُولِ عَمَّا لَا يَعْلَمُ "اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ".

الْعِشْرُونَ: جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ.

الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: تَوَاضُعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الْحِمَارِ، مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ: فَضِيلَةُ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه.

الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

فِهْرِسُ مُقَدِّمَةِ الزَّادِ الْمُفِيدِ شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ